الفكر الأدبى
فى
كشاف الزمخشرى

إعـداد

د/ محمود جمعة أمين

١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي المصطفى الكريم الذي شرح الله له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره وعلمّه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما، ورضي الله تبارك وتعالى عن سائر أصحاب رسول الله وعمّن تبعهم بإحسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وبعد

فهذا بحث عن الفكر الأدبي في كشاف الزمخشري وقد رأيت من المفيد قبل أن أخوض غمار هذا الفكر وألج بابه أن نعيش مع الزمخشري حياته لنتعرف على بيئته ونشأته ودراسته ورحلاته طلباً للعلم وثقافته ومؤلفاته خاصة ما يتصل منها بالدراسات الأدبية ثم عن منزلته العلمية والأدبية بين علماء وأدباء عصره ، وذلك لتكتمل في الأذهان صورة هذا العالم الأديب – فكراً وحياة – وتتضح جليّة لدى من لا يعرف عن الزمخشري إلا القليل، ولتكون الفائدة من البحث أكثر والنفع به أعم وأشمل.

لذا رأيت أن ألقي الضوء في نبذة وجيزة وإلمامة سريعة على حياة الزمخشري قبل أن أعرض لفكره الأدبي من خلال تفسيره الكشاف وأبدأها بالحديث عن مولده.

١- مولده:

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري- ولد يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب عام سبعة وستين وأربعمائة للهجرة [٢٧ من رجب ٤٦٧هـ] الموافق لليوم التاسع عشر من مارس سنة خمس وسبعين وألف ميلادية [١٩ من مارس ١٠٧٥م][١]. في قرية تسمى "زمخشر" وهي قرية كبيرة من قرى "خوارزم" وإليها نُسب[٢] .

٢- بيئته:

فتح العرب إقليم خوارزم سنة ثلاث وتسعين هجرية [٩٣هـ] بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي[٣] وقد أقبل أهل هذا الإقليم على الإسلام بشغف وجدّوا في تعلم اللغة العربية لغة القرآن الحديث وهما مصدرا الشريعة ومنبعاها فلما كانت النهضة العلمية والأدبية في العصر العباسي ازدادوا ركضاً في ميادين الثقافة العربية[٤] .

وقد أجمع المؤرخون على أهمية خوارزم في تقدم الحضارة وازدهارها ثقافياً، كما اتفقوا على خصب أرضها ولامتداد عمرانها وكثرة خيراتها.

---

(١) تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان جـ٥ ص٢١٥ ترجمة د/ عبد التواب رمضان.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ ص ١٠٧ ط بولاق.

(٣) تاريخ الطبري جـ ٨ ص٨٣.

(٤) الزمخشري للدكتور أحمد الحوفي ص١٥.

يقول ياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦هـ عنها: "وكنت قد جئتها سنة ٦١٦هـ فما رأيت ولاية قط أعمر منها وهي متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة البيوت المفردة والقصور في صحاريها قلما يقع نظرك في رساتيقها على موضع لا عمارة فيه، هذا مع كثرة الشجر بها.. .. وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين ويندر أن تكون قرية بغير سوق والأمن هناك شامل والطمأنينة تامة"[١] وفيها أيضاً يقول المقدسي المتوفى ٣٩١هـ : "وهي كورة جليلة واسعة كثيرة المدن ممتدة العمارة فيها المنازل والبساتين كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والفواكه والخيرات مفيدة لأهل التجارات"[٢] .

وقد طبعت هذه البيئة التي تنوعت مناظرها وتعددت مباهجها بين مياه ومزارع وصحار طبعت أهلها بطابعها وصبغتهم بصبغتها، فكان لطبيعتها الجميلة الساحرة ووفرة أسباب المعيشة والترف فيها، كان لهذا كله أثره في صفاء أخيلة أدبائها وشعرائها وملهمة لهم ببنات الشعر وعقايل النثر فتخرج فيها جماعة من الأدباء والشعراء. أفرد الثعالبي الباب الرابع من كتابه (يتيمة الدهر) لأهل القرن الرابع منهم[٣] . وترجم ياقوت لكثير منهم حتى عصره وعد منهم في مجال اللغة والأدب أبا منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفى ٣٧٠هـ مؤلف كتاب

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي جـ٥ ص٤٨٢ ط أوربا.

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ص ٢٨٤ ط أوربا.

(٣) الباب الرابع في غرر فضلاء خوارزم جـ ٤ ص ١٩٤ – ص ٢٥٥ مطبعة حجازي.

"التهذيب" الذي يعد أصلاً من أصول المعاجم اللغوية وقد اعتمد عليه وعلى "المحكم" لابن سيده ابن منظور في معجمه (لسان العرب) ومنهم أبو عمرو أحمد ابن محمد الزوزني المتوفى ٣٧٤هـ صاحب شرح القصائد السبع ومنهم أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري المتوفى ٣٨١هـ وله من المؤلفات كتاب "الشامل" وكتاب "الغاية" وكتاب "قراءة أبي عمرو" وكتاب "غرائب القرآن"[١] .

ومنهم بديع الزمان الهمذاني المتوفى ٣٩٨هـ وهو كاتب وشاعر وقد اشتهر بسرعة الحفظ وله المقامات المعروفة باسمه[٢] .

ومنهم أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري المتوفى ٤٢٩هـ كان كاتباً وكان عالماً باللغة والأدب وهو مؤلف فقه اللغة على الطريقة الموضوعية إذ جمع في كل موضوع الكلمات المتصلة به، ومؤلف "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر".

ومنهم أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى ٤٦٧هـ وهو مؤلف (دمية القصر في شعراء العصر) وقد جعله تذييلاً على يتيمة الدهر للثعالبي[٣] .

ومنهم عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١هـ مؤلف كتابي دلائل

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي جـ ٣ ص١٢.

(٢) معجم الأدباء جـ ٢ ص ١٦١.

(٣) معجم الأدباء جـ ١٣ ص ٣٣.

الإعجاز وأسرار البلاغة. ومنهم أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني المتوفى ٥١٨ مؤلف "مَجْمَع الأمثال" و "السامي في الأسامي" و "النموذج" في النحو وشرح المفضليات[١] .

ومنهم آدم بن أحمد بن أسد الهروي المتوفى ٥٣٦هـ من أهل هراة وسكن بلخ، كان أديباً فاضلاً عالماً بأصول اللغة، ورد بغداد سنة ٥٢٠هـ فاجتمع إليه أهل العلم وقرأوا عليه الحديث والأدب ومن تلاميذه رشيد الدين الوطواط[٢].

وذكر السيوطي جماعة من أهل خوارزم جمعوا إلى جانب الأدب العلوم الدينية ومنهم محمد بن إسحق الخوارزمي ومحمد بن محمود شمس الدين المعروف بالمعيد الحنفي وجابر بن محمد بن يوسف الخوارزمي[٣] .

وقد وصف المقدسي أهل خوارزم بأنهم "أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب وقل إمام في الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي تقدم وزجا".[٤]

وكانت خوارزم في تلك الآونة التي ولد فيها الزمخشري تحت حكم السلطان "جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه الذي يقاس عهده في

---

(١) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٤٥ .

(٢) معجم الأدباء جـ ١ ص ١٠١.

(٣) بغية الوعاة للسيوطي ص ٢١ ، ص ١٠٣ ، ص٢١١.

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ص ٢٨٤.

عظمته وفخامته بأزهى عهود الدولة حيث ازدهرت التجارة والصناعة وزهت الآداب والفنون وكان يعاونه في إدارة الملك وزيره "نظام الملك" الذي يعدّ أقدر وزراء الإسلام طرّا بعد يحيى البرمكي[١] . فقد أنشأ كثيراً من المدارس وأكبر العلماء وأجلّ الفقهاء وأكرم أهل الحديث وأئمة الدين حريصاً على تشجيع الحركة الفكرية والأدبية كلفا بتقريب الشعراء حيث كان يحضر مجالسهم ويغدق عليهم وفيه يقول عز الدين بن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ: "كان -نظام الملك- عالماً ديّناً جواداً عادلاً حليماً كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد وأجرى لهم الجرايات العظيمة وأملى الحديث في بغداد وخراسان"[٢] .

وزاد العماد الأصفهاني فذكر أنه كان يصطفي النابغين من العلماء فتوفر الآباء على تعليم أبنائهم حتى يحظوا بالمناصب العالية التي كان يقسمها درجات ويرشح لكل منصب من يصلح بمقدار ما يرى فيه من الرشد والفضل، وإذا وجد في بلدة من تميز بالفضل وتبحّر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً وجعل فيها دار كتب[٣] . ومن ثم نشأ في عصره طبقات الكتاب المجيدين الذين ولوا المناصب العالية وبسط "نظام

---

(١) مختصر تاريخ العرب لسيد أمي رعلي ص٢٧٠ ط لجنة التأليف والترجمة.

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ٧٢ ط الحلبي.

(٣) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٥٤ ط دار التأليف الطبعة الأولى.

الملك" عليهم حمايته حين وفر لهم الأرزاق ووسع عليهم في معيشتهم وأمنهم غوائل الزمن لينصرفوا إلى نشر علمهم ومعارفهم بين الناس ولا يشغلوا عن ذلك بتحصيل أقواتهم وأقوات من يعولون. وفي ذلك يقول الأصفهاني : "وفي عصره نشأت طبقة الكتاب الجياد وفرعوا المناصب وولوا المراتب، ولم يزل بابه مجمع الفضلاء وملجأ العلماء، وكان ناقداً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته. فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاّه، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه من جدواه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريس الفضل وذكره، وربما سيّره إلى إقليم خال من العلم ليحلّي به عاطله ويحيي به حقه ويميت باطله"(١).

وكان نشاطهم العلمي والأدبي مقروناً بالغيرة على الإسلام والحرص على تعاليمه والحفاظ عليه من أعدائه المحيطين به.

٣- نشأته:

في هذا العهد الذي كان يشجع العمل والأدب ويبسط حمايته على العلماء والأدباء نشأ الزمخشري ثمرة طيبة من شجرة طيبة أسرة فقيرة تقية نقية عُرفت بين الناس بالصلاح والتقوى واشتهر ذلك عنها إذ كان أبوه عالماً أديباً ورعاً تقياً صوّام النهار قوّام الليل حريصاً على مكارم الأخلاق.

---

(١) المرجع نفسه .

وقد أشاد الزمخشري بصفات أبيه هذه كما أشاد بتذوق أبيه للأدب في قوله يرثيه:

فقدته فاضلاً فاضت مآثره ... العلم والأدب المأثور والورع

أخا طباع مصفاة مناسبة ... ماء السحابة ما في بعضها طبع

لم يال ما عاش جداً في تقاه يرى ... أن الحريص على دنياه منخدع

صام النهار وقام الليل وهو شج ... من خشية الله كابي اللون ممتقع

من المروءة في علياء متسع ... صدراً وإن لم يكن في المال متسع[1]

فهذا يدلنا على أن والد الزمخشري كان عالماً أديباً قد تمكن الدين من نفسه فهو يقوم الليل ويصوم النهار ذو خُلق مصفى وتلك صفات تنبئ عن تقوى صاحبها وعزوفه عن الدنيا وهو في ريق الشباب. ثم هو قليل المال كثير العيال كما ينبئ عن ذلك في قصيدة بعث بها إلى السلطان "مؤيد الملك"[2] يستعطفه في إطلاق سراح أبيه متوسلاً إلى سجّانه أن يمنّ عليه مستشفعاً بفضل أبيه وأنه شاب قد ترك من خلفه ذرية ضعافاً .

يقول الزمخشري :

ارحم أبي لشبابه ولفضله ... وارحمه للضعفاء من أطفاله

---

(١) مخطوط ديوان الأدب للزمخشري ورقة ٧٢.

(٢) وقد وصف ابن الأثير في تاريخه الكامل جـ ١٠ ص ١٠٥ مؤيد الملك بأنه كان سيء الخلق غير محمود السيرة مسلطاً على الأخيار.

ارحم أسير الورآه من العدى أقساهم قلباً لرق لحاله

ما أطول الليل الذي يفنيه في سهر وأطول منه ليل عياله

يشكو قيوداً قصرت من خطوه وسلاسلاً حكمت بضيق مجاله[1]

ويبدو أنه مات من أثر سجنه، فقد ذكر الزمخشري أن والده مات وهو قريب عهد بالشباب وأن مما قراه حسرة وأسى أنه لم يكن في صحبة والده في تلك اللحظات التي فارق فيها الدنيا والتي كان ظمئاً فيها للقاء ولده فهو يقول في القصيدة العينية السابقة :

قريب عهد بوخط الشيب عارضه إثر الشباب ووحف الليل متبع

وإن مما قراني حسرة وأسى وضافني الكرب من جراه والوجع

أن عاقني شحط دار عن تفقده حتى مضى وهو من ذكراي ملتذع

يا حسرتا أنني لم أرو غلته وغلتي بزمان فيه نجتمع

قد كنت أشكو فراقاً قبل منقطعا وكيف لي بعده بالعيش منتفع[2]

أما أمه فكانت هي الأخرى صالحة تقية رحيمة القلب رقيقة الإحساس صافية النفس نقية السريرة مفطورة على حب الخير كريمة فاضلة ماجدة وما يحكيه في سبب قطع رجله لدليل على رقة قلبها وشدة عطفها وصدق تدينها وحرصها على التمسك بالرحمة التي هي من أخص أمور الإسلام. وقد بكاها الزمخشري في شعر يفيض رقة وحناناً

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٧ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٢.

فهي تناديه من عالمها وهي في رضوان الله وواسع رحمته فتقول:

أبَتِ إني في الجنان مقيمة ... أختال بين ظليلة الأفياء

حر الجحيم رضا الرحيم أعاذني ... منه وأنزلني مع الصلحاء

في جنة الفردوس فوق أريكة ... في قبة من وردة زهراء

حفت خيام الحور حولَيَ قبتي ... وبرزن عرصتها صباح مساء

أعزز عليّ بأن أراني هكذا ... وأراك رهن الوجد والبرحاء

أعزز عليّ بأن تطول مسرتي ... وتطيل أنت تنفسي الصعداء

في الضيق والظلماء تحسبني ولى ... متبوء في نسمة وضياء

من كان في دار السلام حلوله ... أنى يرى في الضيق والظلماء

واعلم بأني قد دعوت الله أن ... تعطي رضاه فاستجاب دعائي[1]

بهذه أسرة الزمخشري التي لا يعرف عنها المؤرخون إلا ما رواه هو عنها أسرة تقية نقية ظفرت بحظ كبير من التقوى والعلم والأدب فكان لهذه الأسرة أثر واضح في حياة الزمخشري فشب مستقيماً على طريق الله مستمسكاً بكتابه داعياً بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . لم يذق الخمر كما لم يذقها أبوه ولا أحد من أجداده والناس شهود على ذلك

---

(١) يقول الزمخشري : "كنت في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله فأفلت من يدي، فأدركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله في الخيط فتألمت والدتي لذلك وقالت : قطع الله رجلك كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم فسقطت من على الدابة فانكسرت رجلي وأصابني ألم أوجب قطعها. [معجم الأدباء جـ١٩ ص١٢٧ وفيات الأعيان جـ٤ ص٢٥٥].

وكأنه بهذا السلوك يصل سيرته بسيرة آبائه وأجداده إذ يقول في الخمر:

هات التي شبهت ظلماً بشمس ضحى ... لو عارضتها لغطتها بإشراق

أستغفر الله أني قد نسبت بها ... ولم أكن لحميّاها بذواق

ولم يذقها أبي كلا ولا أحد ... من أسرتي ، واتفاق الناس مصداقي[١]

ومع أنه شاعر وفي استطاعة الشاعر أن يهيم بخياله في وصف المرأة والحديث عنها إلا أن نفسه لم تطاوعه على القول في النساء والتصابي بهن، ويبدو أن لحياته الخاصة التي ظللتها الكآبة أثراً في ذلك فقد سلبه الموت كل نصير أو معين في دنياه وهو لما يزل غضاً. فلم يترك له أماً ولا أباً ولا جداً ولا أخاً ولا عماً ولا خالاً. فها هو ذا يحدثنا عن جماعة من أقاربه تخطفهم الموت واحداً إثر واحد فيقول:

ما للنوائب لا ينفك ديدنها ... غمّي وهجيرها قهري وإذلالي

أودت بجدي وما أبقت أخي وطوت ... عمّي وصادت بأسباب الردى خالي[٢]

ويحدثنا عن حالين امتدت إليهما يد الموت فأصبح يفقدهما في شر حال، فيقول:

يا خير خالين إني بعد فقدكما ... من لوعة وأسى في شر حالين

وإن فرقة خال واحد حطمت ... ظهري فكيف إذا فارقت خالين[٣]

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٨٥.

(٢) المصدر نفسه ورقة ١٠٠ وهجيرها = طبيعتها وشأنها.

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١١٤ .

لهذا انصرف عن النساء فعاش عزهاة عنهن عفيفاً لم يشغل بصاحبة ولا ولد ولا حديث عنهن أو تغزل فيهن. وقد عبّر عن ذلك وأبان عن السبب فقال في محاورة بينه وبين إحداهن:

تقول سليمى ما لشعرك طيب ... وهل طاب شعر ليس فيه نسيب

ربيع نفيت الورد عنه فقل لنا ... ربيع بدون الورد كيف يطيب

فقلت لها قول امرئ لعبت به ... حروف زمان جمّة وخطوب

شكايات أيام هلكن قصائدي ... فلم يبق فيها للنسيب نصيب

إذا قلت في شكوى الزمان قصيدة ... وجدت القوافي ترعوي وتجيب

وإن قلت مدحاً أو نسيبا وجدتها ... وعصياتها لى عند ذاك عجيب[1]

لقد اعتزل النساء ونسلهن وآثر أن يعيش حصوراً. ويبدو أنه أخذ العظة من والده فقد كان أبوه كثير العيال رقيق الحال كما أوضحت ذلك من قبل في قصيدته التي بعث بها إلى نظام الملك لإطلاق سراح أبيه . لهذا اختار الزمخشري حياة يهدأ فيها ويعكف على نفسه وعلمه لا يشغله شاغل أو يعوقه معوق لذلك أعرض عن النساء والذرية على حد قوله:

رأيت أبا يشقى لتربية ابنه ... ويسعى لكي يدعى مكيساً ومنجبا

أراد به النشء الأغر فما درى ... أيوليه حجراً أم يعليه منكبا

أخو شقوة ما زال مركب طفله ... فأصبح ذاك للناس مركبا

---

(١) المصدر نفسه ورقة ٦ .

لذاك تركت النسل واخترت سيرة مسيحية أحسن بذلك مذهبا[1]

ويفلسف عزوفه عن النساء ورغبته عن النسل بأنه يخشى أن يلد ولدا غير كيّس فيكون سبّة وعاراً وكم من والد يربي ولده ويشقى ثم يشقيه ولده حين يراه ولداً تافهاً.

وقد أشار إلى ذلك حين لامه قومه ونصحوه بطلب النسل وابتغاء الذرية وذلك قوله:

يموه قومي بالتنصح لؤمهم وإن عناء لومهم والتنصح
يلومونني أني نأيت بجانبي عن النسل ألوي عنه رأسي وأجمح
أتلحون لواماً على النسك أهله إذا لم يفدك القول فالصمت أصلح
كأنكم لم تسمعوا أن من له عيال شقي دهره ليس يفلح
قبيح بمثلي والبنون كما أرى جنود فساد ليس في الألف مصلح
إذا ارتكب الإبن الخليع فضيحة فذاك لعمر الله للأب أفضح[2]

تلك كانت نشأة الزمخشري. أسرة فقيرة لكنها تقية ظفرت بحظ من العلم والأدب ومضى آكثرها وارتحل عن الدنيا في حياة الزمخشري فغدا يعاني صروف الدهر وخطوب الزمن يشكو الفقر ويعاني الحرمان مما جعله يجأر بالشكوى إلى السلطان "نظام الملك" يبثه فيها ضنك العيش ومرارة الحياة، وأنه لولا عون أستاذه "محمود بن جرير الضبي" المتوفى

---

(١) المصدر نفسه ورقة ١٨ .
(٢) مخطوط ديوان الزمخشري ورقة ٢٦ .

٥٠٧هـ لأهلكته الخطوب وأودت به المحن إذ يقول:

إليك نظام الملـك شكواي فاستمع ... إلى بث مجذوذ المعايش ضنكها

طريح خطوب كل يوم تنوبه ... بضائقة تنحى عليه ببركها

ولو لم يل الضبي عني عراكها ... لغالت يد البلوى أديمي بعركها[1]

٤-رحلاته وتنقلاته :

كان الزمخشري في شبابه ومطلع حياته ذا آمال كبار يستشرف بعينيه مستقبلا ينعم فيه بسلطان ومرتبة عالية ليحصل منه على المال الوفير والجاه العريض والمنصب العالي الرفيع ولهذا اتخذ من أستاذه الضبي[2] همزة وصل تصله بالوزير "نظام الملك" الذي كان يعرف قدر العلماء ، وكان الضبي مقرباً من هذا الوزير وكان الزمخشري يعرف هذه الصلة ويستشفع بها لدى الوزير ليصله بالسلطان من ذلك قوله:

ثنائي لصدر الملك ما عشت دائم ... وإن دعائي مثله في دوامه

جعلتهما وردي نهاري وليلتي ... كفعل الفتى في صومه وقيامه

---

(١) مخطوط ديوان الزمخشري ورقة ٩١.

(٢) وهذا الأستاذ يصفه ياقوت في معجمه بأنه فريد عصره ووحيد دهره وأنه حاز كثيراً من الفضائل علماً وخُلقاً وفضلاً وأدباً وانه أكثر الناس إحاطة بعلمي اللغة والنحو، يضرب به المثل في أنواع الفضائل أقام بخوارزم وانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه وأخذوا عنه علماً كثيراً وتخرج عليه جماعة من الأكابر في اللغة والنحو، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها فاجتمع عليه الخلق لجلالته وتمذهبوا بمذهبه [انظر معجم الأدباء جـ١٩ ص ١٢٣] وهو غير الضبي صاحب المفضليات.

وكان فريد العصر عبداً مقربا وما أنا إلا هضبة من شمامه.

وقد أوجب المولى لنا في قبيله قضاء زمام الحر بعد حمامه

فإن يرعني المولى بحسن اصطناعه فقد تمم المولى قضاء ذمامه[1]

اتصل الزمخشري بنظام الملك وقال فيه مدحاً كثيرة وتغني بشكره كقوله:

إليك رئيب الملك أشكر أنعما ليمناك هطّالا على ربابها

ودائمة مني لك الدعوة التي يجوب السموات العلى مستجابها[2]

غير أن الزمخشري لم يتحقق في توليه منصباً وهو النابغة الألمعي والعالم الذكي والأديب اللبيب فتأسى وحزن وشكا آلامه من دنيا ترفع الحقير وتضع الفذ العظيم في قصيدة صور فيها ضيق نفسه وبرمه بعلمه وأدبه وكفايته وفضله إذ لم تبوئه تلك الفضائل المكان الرفيع الذي يستحقه، وجهر بأنه من الظلم أن يظفر المتخلفون الكسالى بما يجب أن يناله الأكفاء المجدون ، وسخط على الزمن الذي جاء على الأراذل بحقوق الأماثل ثم عزّى نفسه عن هذه المفارقات بأن كثيراً من القبيحات أجيادهن حالية على حين أن كثيراً من الحسان أجيادهن عواطل خالية.

من هذه القصيدة قوله:

خليليّ هل تجدي عليّ فضائلي إذا أنا لم أُرفع على كل جاهل؟

---

(١) مخطوط ديوان الأدب للزمخشري ورقة ١٠٤.

(٢) مخطوط ديوان الأدب للزمخشري ورقة ١٣ .

من الغَبن ذو نقص يصيب منازلا ... أخو الفضل محقوق بتلك الفضائل

كفى حزنا أن يرغم الحلم والحجا ... تصدُّرُ بادٍ طيشُه غير عاقل

ومن لي بحق بعد ما وُقِّرت عليّ ... أراذلها الدنيا حقوق الأماثل

كذا الدهر كم شوها، في الحَلَى جيدها ... وكم جِيدِ حسناءِ المقلّد عاطل

ومما شجاني أن غرّ مناقبي ... تغنّى بها الركبان بين القوافل

وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي ... وسارت مسير النيّرات رسائلي

وكم من أمال لي وكم من مصنف ... أصاب بها ذهني محز المفاصل

ولي في دقيق النحو والنقد منطق ... إذا قلته لم أُبق قولاً لقائل

غنيّ من الآداب لكنني إذا ... نظرت فما في الكف غير الأنامل

فيا ليتني أصبحت مستغنياً ولم ... أكن فخر خوارزم ورأس الأفاضل

ويا ليتني مُرضٍ صديقي ومسخط ... عدوي وأني في فهاهة باقل[1]

وكان الزمخشري قد وجه هذه القصيدة إلى الوزير نظام الملك الذي طار صيته وعُرف بعنايته للعلم والأدب ورعايته للعلماء والأدباء غير أن الوزير تجاهل مكانة الزمخشري الذي كان فخر خوارزم حين قدم عليه من هو دونه وليس في خوارزم من يماثل الزمخشري في فضله وأدبه ومكانته وعلمه ولذلك ختم القصيدة بتحدي نظام الملك أن يجد له نظيراً ومن حقه – والوزير يعرف فضله – أن يظفر بالعناية والرعاية ولا يضيع حقه:

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٤ .

وما حق مثلـــي أن يكـون مُضيَّعـاً ... وقد عظمت عنـد الوزيـر وسـائلي

أحظـى منقـوص ولسـت بنـاقص ... وكـم كـامل حظـاً وليـس بكـامل

فلا ترض يا صدر الكفاة بـأن تـرى ... أعـالي قـومٍ ألحقـوا بأسـافل

ولا تجعلونـي مثـل همـزة واصـل ... فيسـقطني حـذف ولا راء واصـل

فكل امـرئ آمالـه عـدد الحصـى ... وهات نظيري في جميع المحـافل[1]

ثم هدده بالرحيل عن خوارزم إذا لم يسعفه بما يؤمل ويلوم الوزير في خفاء حيث إن آماله فيه كانت عظيمة فذهبـت سـدى لأن الأراذل ظفروا بما لم يظفر هو به. فقال:

لئن كان أمري في خوارزم مـا أرى ... فإن رحـالي فـي ظـهور الرواحـل

وكم قلت ألقى فـي وزارتـك المنـى ... وأدرك وحدي ما أرتجـي كـل آمـل

ولـم أدر أن الأرذليـن يـرون مـا ... تمنوا وأني لسـت أحظـى بطـائل[2]

ولم يتحقق أمل الزمخشري وبدأ يشعر بالهوان في خوارزم ففكـر في الرحيل عنها وألا يعود إليها وإن كانت أحب بلاد الله إلى قلبه كمـا يقول:

أحـب بـلاد الله شـرقاً ومغربـاً ... إلـيَّ التـي فيـها غُذِّيـتُ وليـدا

ولكـن تواسـي بالكرامـة غيرهـا ... وهـذي أرى فيـها الـهوان عتيـدا

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٥. والمراد براء واصل = الراء التـي كـان يتجنبـها واصل بن عطاء فقد كان ألثغ فكان يتجنب النطق بالراء لئلا يظهر عيب لسانه.

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٥ .

وما منزل الإذلال بالحر منزلا ... وإن كان عيش الحر فيها رغيدا

سأرحل عنها ثم لست براجع ... وأضرب مرمى في البلاد بعيدا

فلا كنت إن خيّمت فيها ابن حرة ... ولا عشت بين الصالحين حميدا[1]

فتركها متجهاً إلى خُراسان ومدح بها جماعة من أصحاب الدولة والسلطان منهم "مجير الدولة" أبو الفتح علي بن الحسين الأردستاني نائب تاج الدولة على ديوان الإنشاء في عهد السلطان "ملكشاه" وكان أوحد عصره ونسيج وحدَه وقد أهداه كتبه اللغوية كما يفهم من قوله يشكو إليه بؤس حاله وضيق مجاله إذ يقول:

وأصبحت كالمقصوص ريشي جناحه ... أنوء بركن كلما قمت جانح

فعند مجير الدولة المستجار لي ... مداواة أدوائي وأسْوُ جرائح

نطاسي آمال مراض وجابر ... نكسر مهيضات الخطوب الفوادح

فليت رحالي ألقيت بفنائه ... فأرتع في نعمائه غير نازح

ويقدح زَنْدا واريا من مناقبي ... إذا صلدت كل الزناد لقادح

وفي شرح أبيات (الكتاب) لبعض ما ... يرى في صفاتي مجملاً أي شارح

و(أتموجا) أنفذت منه ، يضمه ... رجائي أرى فيه وجوه المناجح

أراقب من عين الوزير اطلاعة ... عليه، وحسبي منه لمحة لامح[2]

فقد صور نفسه سقيماً جريحا مهيض الجناح وبيد مجير الدولة

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٣٧ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٢٣.

برؤه وشفاؤه، وأنه يتمنى أن يكون في ديوانه فيلحقه بعمل تظهر فيه موهبته وكفاءته التي تتوارى أمامها كل الكفاءات وتختفي بظهورها كل المواهب فكفاءته لا مثيل لها وموهبته لا عدل لها. وهو إذ يهدي إليه كتابيه في النحو وهما [شرح أبيات كتاب سيبويه والأنموذج] شاهدين على براعته العلمية ومقدرته النحوية ليتطلع من مجير الدولة إلى نظرة راعية أو إلى لمحة حانية.

كذلك امتدح في خُراسان "مؤيد الملك" عبيد الله بن نظام الملك الذي تولى ديوان الإنشاء وفيه يقول العماد الأصفهاني: "كان مصرفاً للسيف والقلم عارفاً بلغتي العرب والعجم ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه وكان أوحد العصر بليغاً في النظم والنثر"[١] .

امتدحه الزمخشري وما زال الأمل في المنصب يداعب خياله. يقول لمؤيد الملك:

إليك عبيد الله أنهي شكايتي ... نكاية دهر ينتحي بصيالـه

بحقك فازجره ومره لينتهي ... فأمرك أمضى من مواضي نبالـه

وقل يا زمان السوء ما لك قاصداً ... لمن عرف الناس اهتمامي بحالـه

فأنت الذي الديوان طوعٌ لحكمه ... وذلك طوق في رقاب رجالـه

وأنت الذي إن قال شيئاً يريده ... فما فيهم من ينثني عن مقالـه[٢]

---

(١) تاريخ آل سلجوق ص ٧٨ ، ص ٧٩.

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٧ ز

ويبدو أنه لم ينل شيئاً مما كان يؤمله من ممدوحيه في خوارزم وخراسان وضاع أمله في تحقيق مبتغاه فغادر خراسان إلى أصفهان مقر السلطان السلجوقي محمد بن أبي الفتح ملكشاه المتوفى سنة ٥١١هـ وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً وهو الذي قضى على الباطنية وملك حصونهم وخرّب ديارهم ومحا آثارهم[١] فقصده الزمخشري ومدحه بأفعاله التي خدم بها الإسلام من ذلك قوله:

محمد بن أبي الفتح الذي تركت ... أوصاف لكنته في كل منطيق

ابن السلاطين من أبناء سلجوق ... وابن الغطارف منهم والغرانيق

لله من عادل من حق سيرته ... وتصره الحق أن يدعى بفاروق

مستوجب من جموع الشرك مبغضة ... محبب في بني الإسلام مرموق[٢]

ولكن حدثت حادثة غيرت من مجرى حياته إذ مرض مرضاً شديداً فعاهد ربه إن شُفي من مرضه هذا ألا يطأ عتبة سلطان أو يمدح أميراً أو وزيراً أو يطمع في منصب أو جاه فرحل إلى بغداد واجتمع فيها بالفقهاء وأهل الحديث. وممن اجتمع بهم الفقيه الحنفي الدامغاني والشريف ابن الشجري وشيخ الإسلام أبو منصور الحارثي وأبو الخطاب بن البطر[٣] ثم أراد أن يغسل ذنوبه كما صورتها له نفسه تلك الذنوب

---

(١) تاريخ للكامل لابن الأثير جـ١٠ ص ١٨٤ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٨٦ .

(٣) انظر بغية الوعاة للسيوطي ط السعادة ١٣٢٦ هـ ووفيات الأعيان لابن خلكان ط بولاق ١٢٩٩هـ ونزهة الألباء لابن الأنباري ط حجر ١٢٩٤هـ

هي الطمع في المنصب واستجداء عطيات الملوك والملق في المديح تصاغراً.

وشاءت نفسه أن يفر من جوار هؤلاء الملوك حيث خابت آماله وتبخرت أحلامه وأن يلجأ إلى ملك الملوك حيث لا يخيب الراجي فرحل إلى مكة وفي طريقه إليها تغني بتلك المعاني:

سيرى تماضر حيث شئت وحدثي ... أني إلى بطحاء مكة سائر

حتى أنيخ وبين أطماري فتى ... للكعبة البيت الحرام مجاور

متعوّذ بالتركن يدعو ربه ... يشكو جرائر بعدهن جرائر

يشكو جرائر لا يكاثرها الحصى ... لكنها مثل الجبال كبائر

والله أكبر رحمة والله أكـ ... ـثر نعمة وهو الكريم القادر

وأحق ما يشكو ابن آدم ذنبه ... وأحق من يشكو إليه الغافر

فعسى المليك بفضله وبطوله ... يكسو لباس البر من هو فاجر

يا من يسافر في البلاد منقبا ... إني إلى البلد الحرام مسافر

إن هاجر الإنسان عن أوطانه ... فالله أولى من إليه يهاجَر

وتجارة الأبرار تلك ومن يبع ... بالدين دنياه فنعم التاجر

تالله ما البيع الربيح سوى الذي ... عقد التقى وكل بيع خاسر

خربت هذا العمر غير بقية ... فلعلني لك يا بقية عامر

وعهدتني في كل شر أولاً ... فلعلني في بعض خير آخر

في طاعة الجبار أبذل طاقتي ... فلعلني فيها لكسري أجابر

سأروح بين وفود مكة وافداً ... حتى إذا صدروا فما أنا صادر

بفناء بيت الله أضرب قبتي ... حتى يحل بي الضريح القابر

ألقي العصابين الحطيم وزمزم ... لا يطيبني إخوة وعشائر

ضيفاً لمولى لا يخلّ بضيفه ... ويبَذْل أقصى ما تمنى الزائر

حسبي جوار الله حسبي وحده ... عن كل مفخرة يعد الفاخر

ساقيم ثم وثم تُدفن أعظمي ... ولسوف يبعثني هناك الحاشر[1]

وجاور الزمخشري بمكة حيث لقي من الأمير العلوي "علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس" كل تكريم وكان شريفاً جليلاً هماماً ذا فضل عظيم وله تصانيف مفيدة وقريحة في النظم والنثر مجيدة[2] . وقد مدحه الزمخشري مدحاً ينبئ عن صدق العاطفة والمحبة كقوله:

فتى هو حالٍ بالمعالي بأسرها ... وقد حليت منه المعالي بأوحدا

وتقرا من سيماه في قسماته ... شهادة حق أنه سبط أحمدا

هو الحر ما أصدى إلى بيض معشري ... فأبصره إلا نقعت به الصدى

ولي منه نصح الجيب والعقدة التي ... أبت أن يرى الراعون أوثق معقدا

ومما أجل الصنع فيه إناختي ... بمكة مرضياً مراداً ومواردا

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤٣ .

(٢) معجم الأدباء جـ ١٤ ص ٨٥.

ولولا ابن وهـــاس وســابق فضلــه رعيت هشيماً واســتقيت مصــردا[١]

وقد بادله ابن وهاس المدحة بمثلها إذ كان يعرف فضله ومنزلتـــه بين علماء عصره ومن مدحه قوله:

وكم للإمام الفــرد عنــدي مــن يــدٍ وهــاتيك ممــا قــد أطــاب وأكــثرا

أخي العزمة البيضاء والهمـــة التـــي أنافت بها ، علامة العصــر والــورى

جميع قرى الدنيا سوى القرية التـــي تبوأهـــا داراً فـــداء زمخشـــرا

وأحرر بأن تزهى زمخشـــر بـــامرئ إذا عد في أسد الشرى زمــخ الشــرا

فلــولاه مــا طــنّ البــلاد بذكرهـــا ولا طــار فيــها منجــدا ومغـــوّرا

فليــس ثناهــا بـــالعراق وأهلـــه بأعرف منـــه بالحجــاز وأشــهرا[٢]

ولبث الزمخشري في جوار هذا الشريف بمكة عامين زار فيها كل بقعة من بقاع أرض العرب كما يقول: "ووطئت كل تربـــة فـــي أرض العرب"[٣] .

ثم اشتاق إلى وطنه وتجدد عنده الأمل في المال والمنصب فرحـــل عن مكة ولكن خاب أمله إذ لم يظفر من ذلك بشيء فتحسر لفرقته مكـــة وأخذ يبكي رحيله عنها في قصائد كثيرة حفل بها ديوانه منها قوله:

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٢٧ .

(٢) معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٠٠ وإنباه الرواة للقفطي تحقيق الأستاذ محمد أبي الفضـل إبراهيم ط دار الكتب ١٩٥٥ جـ ٣ ص ١٦٨.

(٣) أساس البلاغة للزمخشري جـ ١ ص ٧٨ ط دار الكتب ١٣٤١هـ.

بكـاء علـى أيـام مكـة إن بـنـي ... إليـها حنيـن النيـب فـاقدة البكـر

تذكـرت أيـامي بـها فكـأنني ... قد اختلفت زرق الأسنة في صـدري

أبيت على الصخـر المبـارك باكيـا ... كما أنّت الخنساء تبكي على صخـر[1]

ثم لام نفسه أشد اللوم فقال متحسراً نادماً:

أأبتـاع بـالفوز الشـقاوة خاسـرا ... واستبدل الدنيـا الدنيّـة بـالأخرى؟

إذا خطرت بالبـال ذكـرى إنـاختي ... على حـرم الله اسـتفزتني الذكـرى

وأدعو إلـى السـلوان قلبـاً جوابـه ... لداعيه مُهراق من المقلـة العَبرى

أكـابد ليـلاً كالليـالي وحسـرة ... ودمعاً غزير المستقى غائر المجـرى

وما عـذر مطـروح بمكـة رحلـه ... على غير بؤس لا يجوع ولا يعـرى

فما فـر عنـها يبتغـي بـدلا لـها ... وربّك لا عـذرا وربـك لا عـذرا[2]

وحين وصل إلى بلـده "خـوارزم" وجـد مـن حاكمـها محمـد خوارزمشاه كل تقدير واحترام. ذلك أن "خوارزمشاه" كان -كما يقـول ابن الأثير- : "قد قصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرّب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسنا ومحلـه علـوا"[3] . وقـد مدحـه الزمخشري لشجاعته وعلمه والأدب ومما قاله فيه:

وقد خدمت بشـينين اسـتوى بـهما ... أمر الملـوك ودان السـيف والقلـم

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤١.

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤١ .

(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ٩٢.

هذا لكتب الأيادي واصل حدب ... وذا الكتب الأعادي صارم خذم

للكتب هذا وهذا للكتائب في ... يومي ندا وردي داع ومنتقم

صرير هذا يبارى في مهابته ... صليل ذاك فقد هابتهما البهم

أي الملوك تلاقت في مجالسه ... غرائب العلم والآداب والحكم[1]

وبعد وفاة "خوارزمشاه" ظلت مكانة الزمخشري تزداد احتراماً وتقديراً عند ابنه وخليفة ملكه "أتسرز" غير أن الزمخشري أحس من نفسه إحساساً قوياً وحنيناً إلى مكة ملأ قلبه وملك فؤاده وشعر من داخله أن نفسه لن يقر لها قرار حتى يعود إلى مكة على حد قوله حين قيل له: فما الموجب لعودتك إلى مكة؟ فقال : "القلب الذي لا أجده هنا –أي في خوارزم– أجده هناك"[2] يعني بمكة.

من هنا فقد أخذ يغذ السير إلى مكة ليجاور فيها جواره الثاني لمدة ثلاث سنوات ألّف فيها تفسيره "الكشاف" الذي نحن بصدد استنباط فكره الأدبي منه.

وفي جواره بمكة مرتين ومدته يقول الزمخشري:

فجاورت ربي وهو خير مجاور ... لدى بيته المحرم عاكفا

أقمت بإذن الله خمساً كواملاً ... وصادفت سبعاً بالمعرف واقفا

وتم لي الكشاف ثم ببلدة ... بها هبط التنزيل للحق كاشفا

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٠٧ .

(٢) إنباه الرواة في أنباء النحاة للقفطي جـ ٣ ص ٢٦٦.

وزرت ابن عبـــاس بـــوَجّ ونمنمـــت يدي عند رأس الحَبر منه طرائفـــا[1]

وفي جوار الزمخشري مكة في هذه المرة الثانية سمى نفسه جـــار الله تعبيراً عن فرحه بهذا الجوار الذي صوره بقوله:

أنا الجـــار جـــار الله مكـــة مركـــزي ومضرب أوتـــادي ومعقـــد أطنـــابي

فمن يُلق في بعض القُرَيّـــات رحلـــه فأم القرى مُلقـــى رحـــالي ومنتـــابي

ومن كان في بعض المحاريب راكعـــا فللكعبة البيـــت الحـــرام محرابـــي[2]

وقد لقي من ابن وهاس ما كان يلقاه من قبل من حفاوة وتكريم وما عوده منه ومن صحبه من كرم الوفادة والتعظيم . وفيما لقيه الزمخشري من كرم ابن وهاس وحفاوة صحبه به يقول:

بمكـــة آخيـــت الشـــريف وفتيـــة تواليـــه مـــن آل النبـــي غطارفـــا

وكنت عليـــهم مـــن أعـــز نفوســـهم أعـــز وكـــل كـــان صنـــوا ملاطفـــا

لكـــل مُـــوالٍ لـــي وليّـــا مناصحـــا لكـــل معـــاد لـــي عـــدواً مكاشـــفا

يتـــابع إن نوظـــرت ردءاً لشـــاغب؟ وينـــهض إذ ذوكـــرت ردءاً مكاتفـــا

متي اقبـــلَ العلاّمـــة انتفضـــوا لـــه وحيّـــوه حيّـــا الله تلـــك المعارفـــا

وهشـــوا إليـــه بلســـطين أســـرّة بمـــاء الحيـــاء الهاشـــميّ نواطقـــا

كركب عطاش بعـــد يـــأس تباشـــروا بـــأن أبصـــروا ذا هيـــدب متكاثفـــا

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٩ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٥ .

وكان ابـــن وهـــاس لجنبـــي فارشـــا كمـــا تفعـــل الأم الحفيـــة لاحفـــا

رأيـــت مـــع الإجـــلال منـــه تكرمـــاً كما صـــاب ربعـــي الحيـــا مترادفـــا

على باب أجيـــاد بنـــي لـــي مـــنزلا كركـــن شـــمام بالصفـــا متواصفـــا

وأنفـــق فـــي إتمامـــه مـــن تـــلاده ثقيلات وزن فـــي البـــلاد خفائفـــا[1]

٤- وفاتـــه:

عاود الزمخشري الحنين مرة أخرى إلى وطنه واشتد به الشـــوق إليه ، ولا غرو:

فللأوطـــان فـــي دم كـــل حـــر يـــد ســـلفت ودينـــن مســـتحق

وكأني به يهتف قائلاً:

بـــلادي وإن جـــارت علـــيّ عزيـــزة وأهلـــي وإن ضنّـــوا علـــيّ كِـــرَامُ

وكأنه حين استبد به الحنين إلى بلده يقول:

فكيف أكتـــم أشـــواقي وبـــي كلـــف تكاد مـــن مسّـــه الأحشـــاء تنشـــعب

وكأنه في قرارة نفسه يأمل ويتمنى على الله أوبة إلى مسقط رأســـه أوبة تقر بها عينه كما قيل:

تناءيت عن أهلي وصحبي وموطنـــي ولي أمل فـــي حـــالك الليـــل ســـاطع

لهذا يمم وجهه عائداً إلى بلده قاصداً موطنه، وفي طريقه إليه مـــر

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٩ .

ببغداد عام ثلاثة وثلاثين بعد الخمسمائة للهجرة النبوية[١] [٥٣٣هـ]. ثم ولّى وجهه شطر وطنه حيث استقر به المقام إلى أن وافته منيّته ليلة عرفة بجرجانية خوارزم عام ثمانية وثلاثين وخمسمائة هجرية[٢] [٥٣٨]. ورثاه بعض الشعراء بأبيات منها:

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود[٣]

وقيل إن الزمخشري أوصى أن تكتب على لوح قبره هذه الأبيات:

يا من يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها في نحرها والمخّ في تلك العظام النحّل

انظر لعبد تاب عن فرطاته ما كان منه في الزمان الأوّل[٤]

٥-ثقافته وأثرها في علماء عصره:

يروي ابن خلكان أن الزمخشري لما بلغ سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم[٥] ، وبخارى منذ الدولة السامانية اشتهرت بالآداب فكانت كما يصفها الثعالبي: "مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١١٠.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣١٠ ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٤) المصدر السابق ص ٣٠٩.

(٥) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٠٧.

الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر"[1] فقد أرسله أبوه إلى بخارى -كعبة العلماء ومقصد الأدباء - ليثقف العربية وآدابها آملاً أن يحظى ولده بالمناصب التي يرقاها كل أديب نابغ في عهد "نظام الملك" الذي كان يرعى العلم والأدب ويقرب العلماء ويكرم أهل الأدب وكان هو نفسه محدثاً يروي الحديث ويبني المدارس لدراسته وتعليمه على ما سبق ذكره.

وقد ورد الزمخشري بغداد غير مرة وأخذ الأدب عن أبي الحسن ابن المظفر النيسابوري وأبي مضر محمود بن جرير الضبي وسمع من أبي سعد الشقاني وشيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي الجواليقي وغيرهم[2] .

ولكن الصورة الواضحة لنشأته العلمية هي تتلمذه على أبي مضر الضبي الذي كان مبرّزا في علم اللغة والنحو حتى ليلقب بفريد العصر ووحيد الدهر في النحو واللغة والأدب تخرّج عليه جماعة من الأكابر في النحو واللغة وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها فاجتمع عليه ا لخلق لجلالته وتمذهبوا بمذهبه[3] ، وقد عنى كسائر المعتزلة عناية كبيرة باللغة وتناولها تناولاً استطاع أن يفيد منه في

---

(١) يتيمة الدهر جـ٤ ص ١٠١.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ص٥.

(٣) انظر معجم الأدباء جـ١٩ ص ١٢٣، ووفيات الأعيان جـ٤ ص ٢٥٤ ، وبغية الوعاة ص ٣٨٨.

الناحية الجدلية وهو قد درس المنطق والفلسفة، فليس عجيباً أن يكون تناوله للّغة والنحو على أساس علمي منطقي منظم.

وقد كان لهذه الشخصية المثقفة ثقافة واسعة في اللغة والنحو والأدب وسائر فروع المعرفة – كان لهذه الشخصية الفذة – أثر انعكس على نفس تلميذه الزمخشري حيث كان صورة ثانية من أستاذه الضبي.

كان الضبي داعية كبيراً لمذهب المعتزلة ذا حمية في نشره وإذاعته وهذه الروح المتعصبة المتحمسة بثها في نفس تلميذه الزمخشري فقد نشأ الزمخشري متحمساً للاعتزال مذيعاً لتعاليمه حتى ليروى عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب[١] .

وكان أ ثر أستاذه الضبي فيه من الناحية الأدبية واللغوية واضحاً يعترف له بهما الزمخشري إذ يقول من قصيدة في رثائه:

وما زال موت المرء يخرب داره ... وموت فريد العصر قد خرب العصرا

وصك بمثل الصخر سمعي نعيه ... فشبهت بالخنساء إذ فقدت صخرا

وأبرز كريمات القوافي وغرها ... فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا[٢]

وقد بث هذا الأستاذ في نفس تلميذه حب العرب والعصبية لهم فرأينا الزمخشري يتناسى أصله الفارسي فيطعن الشعوبية ويفخر

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٥٥.

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٥٧ .

بالعرب. يقول من قصيدة يعدد فيها مفاخر العرب ويذكر شجاعتهم وانتصارهم على الفرس:

وقل هو فشا في الأرض غيرُ لسانهم ... لسانٌ فشو الضوء واليوم شامس

به عج في أمصارها كل منبر ... وطنّت به الخافقين المدارس

على ظهرها لم يخلق الله أمة ... تناسبهم في خصلة أو تلابس

تقايس بين الناس حتى إذا انتهى ... إلى العرب المقياس طاح المُقايس

أجل رسول منهم وبلسنهم ... أجل كتاب فاعتبر يا منافس

وقل للشعوبيين إن حديثكم ... أضاليل من شيطانكم ووساوس

لكم مذهب فَسْلٌ يغرّ بمثله ... أشايب حمقى لا الرجال الأكايس[1]

وتلك نظرة من اتسع أفقه العقلي وسما تفكيره الوجداني، ولعل أسرته الدينية وبيئته الإسلامية التي كانت في نزاع دائم مع من جاورهم من أعداء الإسلام ثم ما اتسم به عصر الزمخشري من معارك بين المسلمين والصليبيين وحروب تستعر بينهم باسم الدين بالإضافة إلى عربية أستاذه الضبي وما امتاز به من خلق فاضل وأدب جم. لعل هذا كله عمّق في نفس الزمخشري حب العرب: دينهم وعلمهم وأدبهم ولغتهم وأوطانهم.

وعلى كل حال فقد تثقف الزمخشري ثقافة واسعة فدرس الكلام وعلومه والحديث ورواته والتفسير وأدواته والأدب وفنونه والفقه والنحو

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٦١ . ومذهب فسل = غير ناضج

والعروض والبلاغة مما جعله يفخر بما حصله من معارف وبما ناله من حظ كبير في تلك الثقافة . وها هو ذا يقول مفاخراً:

تراني في علم المنزل عالما ... وما أنا في علم الأحاديث راسفا

فللسنّة البيضاء فيّ مناجح ... ويبغي كتاب الله مني المعارفا

وما أنا من علم الديانات عاطلا ... فأحسن حَلي لم يزل لي شانفا

فكم قد حوت يمناي منه دفاترا ... وكم قد وعت أنناي منه وطائفا

وما للغات العرب مثلي مقوم ... أبَى كل ندب متقن أن يخالفا

وبي يستعيد النحو من أن يسوسه ... نهى لم يجدها الذائقون حصائفا

فقل ابن خلّى سيبويه كتابه ... يقل حجر جار الله مأواي حالفا

وما في رواة للكتب راوية له ... سوى واحد فانظر فلست مصارفا

وعلما المعاني والبيان كلاهما ... أزف إلى الخطاب منه وصايفا

وعلم القوافي والأعاريض شاهد ... بفسحة خطوي فيه إذ كنت زاحفا

أقرت بي الآداب أصلاً لها ومن ... رأى مشرفيات جحدن المشارفا

وديوان منظومي يريك بدائعا ... وديوان منثوري يريك طرائفا[1]

راسفا = مقيدا ، شانفا = حليا ، وطائفا = كثرة ، ندب = نجيب نكيّ

وقد ألّف في تلك العلوم جميعها، وكان الزمخشري منذ صباه

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٨.

مشغولاً بالدرس والبحث وقد امتزج بالعلوم العربية والدينية امتزاجاً شغل قلبه وملك نفسه وكان عزباً لا يصرفه عن التأليف شواغل ا لآباء بالأبناء.

لهذا فرغ للعلم وانكب على البحث فانهمرت عليه سحائبه، ومنح الثقافة جهده فجاءت عليه بأوفر نصيب وحبس على التأليف نشاطه فكثرت مؤلفاته وتنوعت.

وقد ذكر الذين ترجموا لحياة الزمخشري [١] أن مؤلفاته تربو على ثلاثين مؤلفا[٢] في فنون الآداب واللغة والترجمة والحديث والتفسير والفقه والأصول والبلاغة والعروض فضلاً عن ديوانه الشعري. وقد خصها بإعزازه وحبه حتى لقد اتخذ منها أبناءه البررة واستعاض بها عن النسل وفضلها على البنين والبنات لأنها مبرأة من العقوق والمشاكسة فقال:

بنيَّ فاعلم بنات فكري حصانهم أمة الدراسه

أبناء صدق لهم نفوس وصفن بالفضل والنفاسه

---

(١) إنباه الرواة جـ ٣ ص ٢٦٦ ، وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٥٤، معجم الأدباء جـ ١٩ ص ١٣٤ ، تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ ص ٤٨. وتاريخ الأدب العربي . كارل بروكلمان جـ ٥ ص ٢١٥ – ص٢٣٨.

(٢) مقدمة أساس البلاغة ص٥ وقد حصرها د/أحمد الحوفي في سبعة وأربعين مؤلفاً بين مخطوط ومطبوع انظر الزمخشري للدكتور الحوفي الفصل الرابع من ص ٥٨ – ٦٣.

حمـــاة عرضـــي محصّـــود ... فـي كنـف الصـون والحراسـه

بـرّ صريـح بـلا عقـوق ... خلـق صحيـح بـلا شكاسـه

مـا قـل قلبـي كنسـل صلبـي ... مـن قـاس ردّ لـه قياسـه

كـم بيـن ذي مسـلك طـهور ... وسـالك مسـلك الخساسـه

مـن سـاس أبنـاءه فإنـا ... لـهؤلاء البنيـن ساسـه[1]

وقد اتجه الزمخشري في بدء حياته بالتأليف اتجاها أدبيـاً لغويـاً حيث كان يهدي مؤلفاته إلى القائمين على ديوان الإنشـاء فـي عـهد السلطان جلال الدنيا والدين كما تظهره عباراته في مقدمة كتبـه[2] ثـم غلب على تأليفه الأدبي اللغوي عاطفة دينية دفّاقة خاصة بعد أن اهتزّت نفسه بما جرى له من أحداث وبعد أن خابت آماله[3] فيما أمّل ووقفتـه صلته بحكام البلاد على حقيقة ما عليه نفوس من توازع وميول فعاد إلى نفسه يؤنبها على ما فرطت فيه من ملق زائف حين أقدم علـى الحكـام يمدحهم ثم هو إلى جانب ذلك من أسرة تقية ومن بيئة دينيـة متمسـكة بمبادئ الإسلام مقيمة على شرع الله فكان لذلك كله أثر في صفاء نفسـه ورقة شعوره وسمو تفكيره.

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٢٦ .

(٢) انظر على سبيل المثال كتابه "مقدمة الأدب جـ ١ ص ٣ ففيها ترى أنه أهدى هـذا الكتاب إلى الأمير "أتسز بن محمد خوارزمشاه".

(٣) سبق أن أوضحت أن الزمخشري كان في شبابه ومطلع حياته متطلعاً إلى المنصـب والجاه فمدح الملوك والسلاطين والوزراء ولم يترك حاكماً إلا وقال فيه قصيدة.

من هنا غلبت على تآليفه العاطفة الدينية يظهرها الأسلوب الأدبي الرائق الخالي من شوائب التعقيد.

ترى مصداق ذلك في مؤلف له نحوي وهو "المفصل في صنعة الإعراب" والذي شرع في تأليفه في غرة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة [٥١٣هـ].(١) مما يدل على أن مؤلفاته كانت ترمي إلى غاية دينية منذ هذا التاريخ، ففي هذا الكتاب نرى الزمخشري يبدأ مقدمته بطعن الشعوبيين ويرى في مذهبهم مظهراً يتنافى والأخوة الإسلامية التي أقرها القرآن ودعا إلى التمسك بها النبي عليه الصلاة والسلام يقول الزمخشري مبيناً فضل العرب في أسلوب أدبي يفيض رقة وعذوبة: "ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منازلها – حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه – لا يبعدون عن الشعوبية منابذة عن الحق الأبلج وزيفاً عن سواء المنهج، والذي يقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بيّن لا يدفع، ومكشوف لا يتقنع".

ثم يقول كاشفاً عن غايته من تأليف الكتاب : "ولقد نابني ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب وما بي من الشفقة والحدب

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٠٧.

على أشياعي من حفدة الأدب لإنشاء كتاب في الإعراب محيط بكافة الأبواب مرتب ترتيباً يبلغ به الأمد البعيد بأقرب السعي ويملأ سجالهم بأهون السقي فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب "المفصل في صنعة الإعراب"[١] .

فهذه النصوص جميعها تدل على أنه كان يبغي من وراء تأليف العلوم العربية خدمة الدين حتى يبقى للإسلام مجده في هذه البلاد وغيرها من الممالك والأمصار في جميع النواحي والأصقاع.

كما تدلنا على ذلك أيضاً نصوص أخرى في مؤلف آخر وهو "مقامات الزمخشري " ففيه ينحى باللائمة على من يسخرون علمهم وأدبهم للملوك وذوي السلطان مفيداً من تجاربه الشخصية معهم وقد بدأ حياته مدّاحاً لهم وينعى على من يذلون للملوك ذلهم لله سبحانه وتعالى. وفي الكتاب تلمس صدق العاطفة وحرارة الشعور وتدفق التعبير. يقول في مقدمته وقد أهداه لابن وهاس شريف مكة : "أسأل الله أن ينعم لك سجال النعم ويعينك على إفادة أهل الحرم وإفادة الوفاد من أقاصي البلاد ويكتبك ببركة هذا البيت العتيق من العتقاء من النار ويثبت اسمك في جملة الأبرار الذين لهم عقبى الدار"[٢] .

وفيه أيضاً يقول موضحاً أن الأديب يجب أن يكون داعياً إلى

---

(١) مقدمة شرح مفصل الزمخشري لابن يعيش جـ ١ أوربا ١٨٨٦ م ص ٣.

(٢) مقامات الزمخشري ص ٤ ط ١٣١٢هـ.

الفضائل مبرأ من العيوب والعاقل هو الذي يبتغي من أعماله أن يكون بها عند الله وجيهاً ولأن العلم بلا عمل كالقوس بلا وتر: "لعمر الله ليس بأديب ولا أريب كل معرب وحافظ غريب. الأديب من أخذ نفسه بآداب الله فهذبها ونقح أخلاقه من العقد الشائنة فشذبها، والأديب الفاضل من لم يكن له أرب ولا وطر إلا أن يكون له عند الله فضل وخطر، ما غناء من قوي علمه وعمله قد فتر؟ إن علماً بلا عمل كقوس بلا وتر حاملها حيران مرتبك في العماية لا يهتدي وإن كان ابن تِقْن[1] إلى وجه الرماية.. واعلم أن العلم إنما يُتَعلّم لأنه إلى العمل سُلّم كما أن العمل إلى ما عند الله ذريعة ولولاهما ما علم علم ولا شرعت شريعة"[2] .

وهذا كتاب آخر للزمخشري يكشف عن الدافع الديني الذي غلب على تأليفه في الطور الثاني من حياته وهو كتاب "الفائق في غريب الحديث" يقول الزمخشري في مقدمته مبيناً مدى العاطفة الدينية التي سيطرت عليه فدفعته إلى تأليف هذا الكتاب قاصداً من ذلك دعوات الناس له ورضاهم عنه بعد رضاء الله عز وجل آملاً منه سبحانه وتعالى جزيل الثواب وغاية الرضوان يقول الزمخشري : "وقد صنف العلماء رحمهم الله في كشف ما غرب من ألفاظه واستبهم وبيان ما اعتاص من أغراضه واستعجم كتباً تأنّقوا في تصنيفها وتجودوا واحتاطوا ولم يتجوزوا وعكفوا هممهم على ذلك وحرصوا واغتنموا الاقتدار عليه

---

(١) ابن تقن = هو عمر بن تقن من قبيلة عاد كان يُضرب به المثل في جودة الرمي.

(٢) مقامات الزمخشري ص ١٠١.

. وافترصوا حتى أحكموا ما شاءوا .. ولكن لا يكاد يجد بدّاً من نبغ في فن من العلم وصبغ به يده وعانى فيه وكده من استحباب أن يكون له فيه أثر يكسبه في الناس لسان الصدق وجمال الذكر، ويدخر له عند الله جزيل الأجر وسنى الذخر. وفي صوب هذين الغرضين ذهبت عند صنعة هذا الكتاب .. فأية نفس كريمة ونسمة زاكية نوّر الله قلبها بالإيمان والإيقان مرت على هذا التبيان والإتقان فلا يذهبن عليها أن تدعو لي بأن يجعله الله في موازيني ثقلا ورجحاناً ويثيبني عليه روحاً وريحاناً"[1] .

كما أنه يرجو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم شافعاً له بهذا الكتاب وكتابه (الكشاف) وفي ذلك يقول:

فهل تتلقاني شفاعة أحمد ... وعفو كريم للإساءة ماحص

وهل يكشف الكشاف والفائق العمى ... إذا تليت يوم القضاء القصائص

يمد الكتاب النور والسنة السنا ... متى لخصت في الجامعين اللخائص[2]

وفي النصائح الصغار المسمى "أطواق الذهب في المواعظ والخطب" يهدف الزمخشري أيضاً إلى غاية دينية . فالكتاب كما يدل عليه عنوانه في المواعظ ثم هو مظهر من مظاهر التحول الذي طرأ على حياة الزمخشري فلونها بلون الزهد والتنسك والتبتل والانقطاع إلى

---

(١) الفائق في غريب الحديث للزمخشري جـ١ ص ٢ ، ص ٣ طبعة حيدر آباد ١٣٢٤هـ.

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٦٦.

الله عز وجل كما تدل عليه العبارة التي ذكرها في مقدمته وفيها يدعو ربه قائلاً: "وأرغب إليك أن تجعل عقيدتي وطويتي وبديهتي ورويتي وما خط بناني وخطر بجناني وكل ما ألفته من أقوالي وكلمي وأسلة مقولي على سن قلمي خالصة لك ومن أجلك، مطلوبة بها نفحات سجلك، وأن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ما يهبها مهب الجنوب، وأن تحفظ فيها ما أوجبت للجار من حق الذمام والذمار، لأنها وجدت في حرمك المطهر وولدت في حجر بيتك المستر"(١) .

والكتاب يفيض بالعاطفة الدينية. فهو ثورة على النفس الإنسانية ونوازعها، وثورة على الأوضاع الاجتماعية في عصره.

وقد وجه الزمخشري إلى قراءة ما فيه وتدبره قبل أن يولي عمر الإنسان فيندم على ما فات "ولات ساعة مندم" وفى: طوفي النصائح الصغار املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأجلهما في جملة هذه العجائب متفكراً في قدرة مقدّرها متدبراً حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر"(٢) .

فكل تلك النصوص بما فيها من تلون للتعبير الأدبي تومئ إلى أن العاطفة الدينية غلبت على تأليفه في الطور الأخير من حياته. تلك التآليف التي تدل على سعة آفاقه علماً وبحاره أبداً وقد أولاها عنايته

---

(١) مقدمة أطواق الذهب في المواعظ والخطب ص ٤ – ص ٧ مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ.

(٢) انظر أطواق الذهب ص ٩٧.

ووقف عليها كده وجهده ووقته فكانت عنده أحب من كل شيء وهي متعته في دنياه على حد قوله:

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي ... من وصل غانية وطيب عناق

وتمايلي طرباً لحل عويصة ... أحلى وأشهى من مدامة ساقي

وصرير أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدوكاة والعشاق

وألذّ من نقر الفتاة لدفّها ... نقري لألقى الرمل عن أوراقي

أأبيت سهران الدجى وتبيته ... مؤما وتبغي بعد ذاك لحاقي؟![1]

تلك كانت ثقافة الزمخشري : ثقافة واسعة وإحاطة تامة بكثير من أنواع العلوم والمعرفة. كان من آثارها أن كوَّن الزمخشري مدرسة ينشر فيها علمه وأدبه ويبث تعاليمه على تلاميذه في معظم الأصقاع والأمصار من بلاد فارس ففي "زمخشر" كان من تلامذته أبو عمرو عامر بن الحسن، وفي "طبرستان" أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويل وأبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز "بأبيورد" وفي "خوارزم" الموفق بن أحمد بن أبي سعيد المعروف بأخطب خوارزم كان متمكناً في العربية غزير العلم فقيهاً أديباً شاعراً[2] .

وفي خوارزم كذلك علي بن محمد أبو الحسن الأديب القمراني. يقول عنه ياقوت : "القمراني حجة الأفاضل سيد الأدباء قدوة مشايخ

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ٣٠٩ ، ص ٣١٠ ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) الأنساب للسمعاني ص ٢٨٨ . وبغية الوعاة للسيوطي ص ٤٠١.

الفضلاء المحيط بأسرار الأدب والمطلع على غوامض كلام العرب، قرأ الأدب على فخر خوارزم محمود بن عمر الزمخشري فصار أكبر أصحابه وأوفرهم حظاً من غرائب آدابه".[١]

كما كان من تلاميذه "محمد بن أبي القاسم بن بايجوك أبو الفضل البقالي الخوارزمي الآدمي" الملقب : "زين المشايخ" النحوي الأديب. وصفه ياقوت بأنه : "كان إماماً في الأدب وحجة في لسان العرب أخذ اللغة وعلم الإعراب عن أبي القاسم الزمخشري وجلس بعده مكانه وسمع الحديث منه"[٢] .

وأخذ العلم عنه يعقوب بن علي بن محمد أبو يوسف البلخي أحد الأئمة في النحو والأدب[٣] وتتلمذ عليه كذلك علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس وكان شريفاً جليلاً من أهل مكة وشرفائها وأمرائها، وكان ذا فضل عظيم وعلم غزير وله تصانيف مفيدة وقريحة في النظم والنثر مجيدة، قرأ على الزمخشري بمكة وبرز عليه وصرفت أعنة طلاب العلم والأدب إليه.[٤]

وأحب تلاميذ الزمخشري إليه كان ضياء الدين المكي المتوفى ٥٥٠هـ[٥] .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٦١ وما بعدها.

(٢) معجم الأدباء ، جـ ١٩ ص ٥.

(٣) معجم الأدباء جـ ٢٠ ص ٥٥.

(٤) معجم الأدباء جـ ١٤ ص ٨٥.

(٥) تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان جـ ٥ ص ٢٣٨.

وممن طلب الإجازة من الزمخشري "زينب بنت الشعرى" التي أجازت ابن خلكان[١] والحافظ أحمد بن محمد السلفي وقد كتب إلى الزمخشري من الإسكندرية وهو يؤمئذ مجاور بمكة يستجيزه فلم يجزه فلما كان العام الثاني كتب إليه استجازة أخرى يقول فيها "ولا يحوج أدام الله توفيقه إلى المراجعة فالمسافة بعيدة وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفي الغليل وله في ذلك الأجر الجزيل"[٢] .

كما طلب الإجازة والرواية من الزمخشري محمد بن عبد الملك البلخي المعروف برشيد الدين الوطواط وكان شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً لا يُشق له في ميدان الفصاحة غبار ولا يدرك له في رهان البلاغة مضمار، كان من نوادر الزمان وعجائبه وأفراد الدهر وغرائبه، أفضل أهل زمانه في النظم والنثر وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب طار في الآفاق صيته وسار في الأقاليم ذكره، كان ينشئ في حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ويميلهما معا[٣] .

وقد كتب إلى الزمخشري رسالة يستجيزه فيها ومما جاء فيها قوله: "أنا منذ لفظتني الأقدار من أوطاني ومعاهد أهلى وجيراني إلى هذه

---

(١) وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٤٧.

(٢) وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٠٨.

(٣) انظر معجم الأدباء جـ١٩ ص ٢٩ ومقدمة مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط بقلم محمد أفندي فهمي مطبعة المعارف بمصر طبعة أولى سنة ١٣١٥هـ.

الخطة التي هي اليوم بمكان جار الله –أدام الله دولته جنة للكرام– كانت قصوى منيتي وقصارى بغيتي أن أكون أحد الملازمين لسدته الشريفة التي هي مخيم السيادة ومقبل أفواه السادة من ألقى بها عصاه حاز في الدارين مناه، ونال في المحلين مبتغاه.. فإن حضرة جار الله أوسع من أن تضيق على راغب في فوائده وأكرم من أن تستثقل وطأة طالب لعوائده، ومع هذا أرجو إشارة تصدر من مجلسه المحروس إما بخطه الشريف فإن في ذلك شرفا لي يدوم مدى الدهور والأيام، وفخراً يبقى على مر الشهور والأعوام، وإما على لسان من يوثق بصدق مقالته ويعتمد على تبليغ رسالته من المنخرطين في سلك خدمته والراتعين في رياض نعمته ورأيه في ذلك أعلى وأصوب"[١] .

وقد أجازه الزمخشري كما تنبئنا رسالة الوطواط التي كان قد بعث بها إليه يهنئه فيها بالعيد[٢] .

وقد ظلت أستاذية الزمخشري في نفس تلميذه رشيد الدين الوطواط تحتل مكانة الإجلال والتقدير حتى بعد وفاته كما تخبرنا الرسالة التي بعث بها الوطواط إلى أحد الفضلاء يستعير منه كتاب أساس البلاغة للزمخشري[٣] .

وليس كل من ذكرت كانوا تلاميذ الزمخشري فحسب وإنما كان

---

(١) مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط جـ ٢ ص ٢٩.

(٢) انظر الرسالة في الجزء الثاني من مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط ص ٥٩.

(٣) انظر الرسالة في الجزء الثاني من مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط ص ٦٧.

غيرهم ممن أجاز وعلم وعكف على قراءة كتبه يتزود منها وإن لم يلقه أو يأخذ عنه مشافهة وقد منحهم الزمخشري حبه ووده واستغنى بهم وبمؤلفاته عن النسل والذرية على حد قوله:

وحسبي تصانيفي وحسبي رواتها ... بنين بهم سيقت إلى مطالبي[1]

٦- منزلته الأدبية:

كان لثقافته الواسعة في العربية وآدابها ولغتها ونحوها وتبحره في العلوم الدينية والفلسفية إلى جانب ثقافته الفارسية أن ذاع فضله وعظم في أعين الناس قدره حتى أثنى عليه كل من اغترف من بحار علمه وأدبه وما أكثرهم.

ومن الذين أثنوا عليه لعلمه وأدبه الأمير شبل الدولة أبو الهيجاء مقبل بن عطية البكري فقد أرسل إليه هذه الأبيات ولم يره قبل:

هذا أديب فاضل ... مثل الدراري درره

زمخشري فاضل ... أنجبه زمخشره

كالبحر إن لم أره ... فقد أتاني خبره[2]

وأرسل إليه منتجب الملك أبو جعفر محمد أحد كبراء دولة السلطان السلجوقي سنجر قصيدة وهو في مكة يقول فيها:

---

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩ .

(٢) إنباه الرواة في أنباء النحاة للقفطي جـ٣ ص ٢٧١.

إليك يهزني الحب المطاع ... ويسكرني لرؤيتك النزاع

فهل لك يا شقيق النفس علم ... بما أنبأت عنه واطلاع

وأنت لكل منقبة مُعانٍ ... ومن دَرّ العلوم لك ارتضاع

ولما كنت جار الله صارت ... تسير بك الأماكن والبقاع

تضيء بعلمك الدنيا فيضحي ... له في كل ناحية شعاع[1]

وقد عرف فضله وأدبه الأمير العلوي شريف مكة ابن وهاس وقد سبق أن نوهنا به وذكرنا أنه كان من تلاميذ الزمخشري حين كان بمكة في جواره الأول والثاني وقد سبق أن ذكرنا مدحته التي أشاد فيها بأستاذه الزمخشري فذكر أن شهرته طبقت الآفاق وأن اسمه طار في جميع البلاد وأن كل الناس شهود بفضله وعلمه وأدبه وتلك قوله:

وأحرر بأن تزهى زمخشر بامرئ ... إذا عد في أسد الشرى زمخ الشرا

فلولاه ما طن البلاد بذكرها ... ولا طار فيها منجداً ومغورا

فليس ثناها بالعراق وأهله ... بأعرف منه بالحجاز وأشهرا

كما أثنى عليه كذلك كل من ترجم له:

١-يقول عنه ياقوت : "كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب واسع العلم كبير الفضل متفننا في علوم شتى"[2] . ويذكر : "أنه قدم بغداد في طريقه إلى الحج فاجتمع الناس حوله لسمعوا منه"[3]

---

(١) إنباه الرواة في أنباء النحاة للقفطي جـ٣ ص ٢٧٢.

(٢) معجم الأدباء جـ ١٩ ص ١٢٦.

(٣) معجم الأدباء جـ ١٩ ص ١٢٨.

٢-ويذكر القفطي: أنه دخل خراسان وورد العراق وما دخل بلداً إلا اجتمع الناس عليه وتلمذوا له واستفادوا منه. ويقول : إنه أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل وتحط بفنائه رحال الرجال وتُحدَى باسمه مطايا الآمال إذ كان في عصره علاّمة الأدب ونسابة العرب وكان أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه وأكثرهم أنساً واطلاعاً على كتبها وبه ختم فضلاؤهم[١] .

٣-ويقول فيه ابن خلكان : "كان إمام عصره غير مدافع تشد إليه الرحال في فنونه[٢]. وينقل عن أبي اليمين زيد بن الحسن الكندي الملقب "تاج الدين" المتوفى ٦١٣ هـ قوله: " كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه وأكثرهم اكتساباً واطلاعاً على كتبها وبه ختم فضلاؤهم. قدم علينا بغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ورأيته عند شيخنا أبي منصور الجواليقي مرتين قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيزاً لها"[٣] .

٤-وينقل ابن الأنباري رأي ابن الشجري -وهو عالم لغوي- في الزمخشري فيقول: "وقدم إلى بغداد للحج فجاءه شيخنا الشريف ابن الشجري مهنئاً بقدومه فلما جالسه أنشده الشريف ابن الشجري:

---

(١) إنباء الرواة جـ ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٧٠.

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص١٠٧.

(٣) وفيات الأعيان جـ٢ ص ١١٠.

كـانت مسـاءلة الركبـان تخـبرني عن أحمـد بـن دؤاد أطيـب الخـبر

حتى التقينـا فـلا والله مـا سـمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصـري[١]

٥-وفيه قال رشيد الدين الوطواط :

لقـد حـاز جـار الله دام جمالـه فضـايل فيـها لا يُشـق غبـاره

تجدد رسـم الفضـل بعـد اندراسـه بأيـام جـار الله فـالله جـاره[٢]

وقد ذكر هو نفسه فأبان عن مدى الحفاوة التي كان يلقاهـا مـن الناس في أي مكان نزل فيه من أرض الله فكان كالكعبة يطوف النـاس حوله قابسين من نور علمه مغترفين من بحار أدبه فيقول:

ألـم تـر أنـي حيـث كنـت كعبـة يحفـون بـي كالطـائفين طوائفـا

فشرقيهم يهوى إلـى النـور قابسـا وغربيّهم يسعى إلى البحر غارفـا[٣]

ويقول أيضاً : "وإني في خوارزم كعبة الأدب"[٤]

فهذا هو الزمخشري حياة . وبعد:

أما الزمخشري فكراً أديباً فهذا ما سأبينه إن شاء الله في الدراسـة الآتية في الصفحات التالية:

---

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري جـ ١ ص ٤٧٠.

(٢) مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط جـ ٢ ص ٢٨ ، ص٢٩.

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٩.

(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٨ .

"فكر الزمخشري الأدبي في كتابه الكشاف ":

وبعد هذه الإشارة السريعة إلى ثقافة الزمخشري الواسعة مؤلفاته المتنوعة في كافة فنون العربية والتي وقفنا فيها عن بصره بالعربية وحذقه لها وقريحته النافذة وإحساسه المرهف وذوقه الناقد – أقول بعد هذه الإشارة أعرض لفكره الأدبي من خلال تفسيره للقرآن الكريم في كتابه (الكشاف).

وقد قلت فيما سبق إنه قد غلب على تأليفه الأدبي اللغوي العاطفة الدينية . وذلك ليتبين لنا الاتجاه الذي سلطه ومدى ما صاحب هذا الاتجاه من إحساس رهيف وذوق أدبي رفيع يتغلغل في مسالك التنزيل ويكشف عن خفاياه ودقائقه وهو يرد جمال الأسلوب القرآني إلى المعاني الإضافية للتعبير من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وذكر وحذف وقصر ووصل وفصل وما إلى ذلك من خصائص العبارات ، ثم يمضي يصور دقائق الفروق في الصور البيانية من آي الذكر الحكيم موضحاً ما يجري فيها من جمال في المعنى وصدق في التعبير. فليس تفسير القرآن – على حد قوله: – هو معرفة معانيه فحسب بل هو أيضاً بيان لأسرار إعجازه ، وإن معرفة ذلك لن تتم إلا لمن تمّت له آلة البلاغة وملك زمام الفصاحة بأن عرف وجوه الأساليب وخصائصها المعنوية والتعبيرية وحذق الأسباب المعينة على تمييز صور الكلام البيانية:

"فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم

وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية[١] أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانهما همّة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ كثير المطالعات طويل المراجعات قد رجع زماناً ورجع إليه وردّ وردّ عليه، فارساً في علم الإعراب ، مقدما في حملة الكتاب ، فكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقّادها، يقظان النفس درّاكاً للمحة وإن لطف شأنها منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها لا كزّا جاسيا، ولا غليظاً جافياً متصرفاً ذا دربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريّض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويرصف طالما دفع إلى مضايقة ووقع في مداحضة ومزالقة"[٢]

تلك كانت خطة الزمخشري التي وضعها على طريق اتجاهه

---

(١) ابن القرية = هو أيوب بن زيد بن قيس. والقرية = أمه. وكان لسناً خطيباً قتله الحجاج لاتهامه بالميل إلى ابن الأشعث (الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني جـ ١ ص ١٥٣ تهذيب ابن و اصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧هـ) طبع المطبعة الشرفية للإعلانات بالقاهرة.

(٢) مقدمة الكشاف للزمخشري جـ ص ١٥ – ص ١٧ طبع دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

الأدبي الذي سلكه لتفسير القرآن الكريم . وقد مضى يطبق تلك الخطة على آي الذكر الحكيم جاعلاً – كما اتضح من النص السابق – من علمي المعاني والبيان أهم عدة لمن أراد أن يفسر القرآن الكريم "إذ بدونهما لا تستقيم له الدلالات ولا تتضح له الإشارات ولا لطائف ما في الذكر الحكيم من الجمال البلاغي المعجز الذي عنت له وجوه العرب وخروا له ساجدين"(١) .

وكان قبل أن يتصدى إلى الدرس الأدبي في القرآن قد أعد نفسه لهذا الجهد العظيم بدراسة واسعة هضم فيها الثقافة الفارسية واستوعبها بالإضافة إلى تبحره في علوم العربية – كما أسلفنا – كذلك درس الثقافة اليونانية دراسة تمثّل "وكان مؤسسو هذا التراث أنشط من العرب في متابعة الفكر الإنساني في كل مظانه وأقدر على فقه الثقافات الأجنبية وتمثلها وأصبر على البحث والدرس وكانوا يفرزون هذه العصارات المختلفة عربية الشكل والجوهر، حتى ليخيل إليك أنهم لم يقرأوا عن التراث العربي. وهذه وظيفة الرواد القوامين على ثقافات الأمم وحضارتها والحراس المحافظين على ملامحها وأصالتها"(٢) .

وكانت عناية الزمخشري بعلم المعاني أتم وأوسع، وكان في البداية

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور / شوقي ضيف ص ٢٢١ طبع دار المعارف.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية د/ محمد أبو موسى ص ١٢.

يسميه – اتباعاً لتسمية عبد القاهر الجرجاني – بعلم النظم[١] أو الأسلوب إذ يرى فيه العلم الذي يُبرز أسرار الإعجاز القرآني ويُبين عن أسرار الجمال فيه.

يقول الزمخشري عن أسرار الجمال القرآني : "وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإن بقيت محتجبة في أكمامها"[٢] .

والجدير بالذكر أن أُقرر هنا أنه في مسألة النظم كان يتبع عبد القاهر الجرجاني بل إنه أول من طبق رأي عبد القاهر الجمالي في إعجاز القرآن تطبيقاً يشهد له بالبراعة. فقد مضى يفسر القرآن الكريم في كتابه (الكشاف) مطبقاً تطبيقاً دقيقاً وعلى نطاق واسع يشمل سور القرآن جميعها كل ما استنبطه عبد القاهر من قواعد وأصول في مباحث المعاني والبيان فقد عرض للأسلوب من وجهة نظر الجرجاني من حيث الاهتمام بطرق التعبير وعلاقات النظم وصلات الألفاظ النحوية نافذاً إلى استكمال كثير من شعب المعاني الإضافية وهو يروعنا بتحليلاته وملكاته العقلية وحذقه لأساليب العربية وأسرارها وخصائصها المعنوية والبيانية بما أوتي من الفطنة ودقة الحس ورهافة الشعور، ولا أبعدُ عن الصواب إذا قلتُ : إن عناية الزمخشري بهذا الجانب قد فاقت عناية عبد القاهر

---

(١) أي تعليق الكلام بعضه ببعض وجعل بعضه بسبب من بعض. أو بعبارة أخرى: بيان الروابط والعلاقات بين الجمل وكيف يدعو الكلام بعضه بعضاً ويأخذ بعضه بحجز بعض.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٨٤.

فكانت أتم وأوسع[١] . فهو إن فسّر أديب ذوّاقة للمعنى وجماله وللأسلوب وحلاوته، وإن عرض للنحو لا يعرضه قواعد جافة وإنما يعرضه عرض من يقدر الجمال معنى ولفظاً، وإن تصدى لقراءة ورجحها على غيرها فلأنها تحفظ على الأسلوب القرآني سلاسة ألفاظه وعذوبة معانيه.

ولنعش الآن مع بعض النماذج التطبيقية من خلال تفسيره لآيات الكتاب العزيز لنرى فيها أديباً نقادة ذواقة وليتبين لنا فكره الأدبي الذي قاده لإبراز أسرار التنزيل التي هي بالغة من اللطف والخفا حداً يدق عن تفطن العالم الأريب ويذل عن تبصر الأديب اللبيب.

وقبل أن نمضي مع نماذجه التفسيرية لندلّ منها على فكره الأدبي أرى من المناسب أن أذكّر القارئ الكريم بأن العمل الأدبي يتكون من عنصرين أساسيين هما: الشكل والمضمون. أما الشكل فهو التعبير والأسلوب أو نظم الكلام أنه الأداة التي بواسطتها ينقل الأديب فكره وإحساسه المضمر في النفس إلى الناس وقد وشّاه بصور الخيال وظلاله فيؤثر في نفوسهم ويدفعهم إلى مشاركته الوجدان فيما أحسّ به إزاء النص الأدبي. وأما المضمون فهو الفكرة أو المعنى وهي قيمة تظل مضمرة في النفس خفية مكنونة مستترة حتى يبرزها الأديب في الصورة التعبيرية الموشّاة بصور الخيال من مجاز وتشبيه واستعارة حتى تؤثر

---

(١) انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٥ د/ محمد أبو موسى. وفيها يقول: "وإذا كان الزمخشري قد طبق كثيراً مما قرره عبد القاهر الجرجاني فقد أضاف أصولاً بلاغية هامة لم يعرض لها عبد القاهر ونمّى كثيراً من المسائل".

في نفوس الناس وتحملهم على مشاركة الشعور والأحاسيس والوجدان.

والسؤال الآن : هل اتجه الزمخشري بفكره إلى هذين العنصرين وعلى ضوئهما مضى يفسر آي الذكر الحكيم؟

والجواب : نعم . وهاك مظاهر فكره الأدبي من خلال تفسيره (الكشاف) والتي تجلت في معالجته للعناصر الأدبية الآتية:

١-قيمة عنصر المعنى في النص الأدبي :

وقد أبان عن قيمة هذا العنصر وأفصح عن أهميته حيث عاش مع النص القرآني الذي هو ذروة النص الأدبي بفكره وقلبه وحسّه ووجدانه غائصاً في بحار آياته ليستخرج لآلئ أسراره وكنوز مرماه وأهدافه، ثم يعود وقد كشف لنا عن معاني نفسية استشفها من باطن النص فمثلاً يقول في قوله تعالى : {أن تقولَ نفسٌ يا حسرتا على ما فرّطت في جنب اللهِ وإنْ كنتُ لَمِنَ السّاخرين، أو تقولَ لو أن الله هداني لكنتُ من المتّقين، أو تقولَ حين تَرَى العذابَ لو أنّ لي كرّةً فأكون من المحسنين، بلى قد جاءتكَ آياتي فكذّبت بها واستكبرتَ وكنتَ من الكافرين} يقول في قوله تعالى {لو أن الله هداني} : لا يخلو إما أن يريد به الهداية بالإلجاء أو بالإلطاف أو بالوحي، فالإلجاء خارج عن الحكمة، ولم يكن من أهل الإلطاف فيلطف به، وأما الوحي فقد كان ولكنه أعرض ولم يتبعه حتى يهتدي، وإنما يقول هذا تحيراً في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ويمضي الزمخشري قائلا:

"وقوله {بلى قد جاءتك آياتي} ردّ من الله عليه معناه: بلى قد هُديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله وآثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى".

ويبين الزمخشري لماذا تأخر جواب القرينة الثانية[1] فيقول: "فإن قلت : هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله – لو أن الله هداني – ولم يفصل بينهما بآية . قلت : لأنه لا يخلو إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن ، وإما أن تؤخر القرينة الوسطى فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن ، وأما الثاني فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب"[2] .

ويسفر الزمخشري عن المعاني النفسية التي تضمنتها آيات سورة (ص) والتي تتحدث عن حكومة داود عليه السلام وهي قوله تعالى {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ

---

(١) بيان ذلك أن قوله تعالى : "بلى قد جاءتك آياتي" جواب لقوله " "لو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين".

(٢) انظر الكشاف جـ ٣ ص ٤٠٤ ، ص ٤٠٥.

بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ} .

ويقول : "فإن قلت: لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح؟ قلت: لكونها أبلغ في التوبيخ من قِبَل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه وأجلب لاحتشامه وحيائه وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه من أن يباده به صريحاً مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة. ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة بأن يعرّض له بإنكارها عليه ولا يصرّح؟ وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمح حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالاً لحاله ومقياساً لشأنه فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة"[1] .

ويكشف الزمخشري عن المعنى الذي تستهدفه آيات سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} فيقول : "ولو فلّيت القرآن كله وفتّشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ولا

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٦٦.

أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنّة كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القَذَفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا وأنه يُرَفِّيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك أن الله هو الحق المبين. فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء لما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك إلا لأمر"[1].

ويمضي الزمخشري في إظهار معاني هذه الآيات وأثرها على نفوس المحصنات البريئات وما ترمي إليه من علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول إن ابن عباس رضي الله عنهما سُئل بالبصرة عن هذه الآيات فقال : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قُبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة.. ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد – وشهد شاهد من أهلها – وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها – إنّي عبد الله – وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات[2] .

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٥٦ ، ص ٥٧ . ويريد الزمخشري بالأمر. الأحاسيس والخلجات النفسية والشعور بالمارة والآلام التي تعانيها نفوس المحصنات الغافلات.

(٢) المصدر نفسه.

ويستمر الزمخشري مع هذه الآيات مبرزاً ما تحمله من فخامة المعنى وعظيم المرمى بالموازنة بين تبرئة عائشة وبين تبرئة من ذكر ليكشف لنا عما تبطنه الآيات من جليل المعنى ونبل المقصد وهو تحقق عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقدمه على كل سابق. وذلك قوله: "فانظر كَمْ بينها –أي عائشة– وبين تبرئة أولئك وما ذاك إلا لإظهار علوّ منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتنبيه على إنافة محل سيد ولد آدم وخيرة الأولين والآخرين وحجة الله على العالمين. ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صلى الله عليه وسلم وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك وليتامل كيف غضب الله له في حرمته وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه"[1] ويقول في الآية {كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رُزِقْنَا من قَبْلُ وأُتُوا بِهِ متشابها}: فإن قلت لأي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة ومن بال ثمر الجنة لم يكن أجناساً أخر؟ قلت: لأن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل وإذا رأى ما لم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه ولأنه إذا ظفر بشيء من جنس ما سلف له بعهد وتقدم له معه إلف ورأى فيه مزية ظاهرة وفضيلة بينة وتفاوتاً بينه وبين ما عهد بليغاً أفرط ابتهاجه واغتباطه وطال استعجابه واستغرابه وتبين كنه النعمة فيه وتحقق مقدار

---

(١) الكشاف جـ٣ ص٥٧.

الغبطة به: ولو كان جنساً لم يعهده وإن كان فائقاً حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك فلا يتبين موقع النعمة حق التبين فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم وأن الكبرى لا تفضل عن حد البطيخة الصغيرة ثم يبصرون رمانة الجنة تشبع السكن. والنبقة من نبق الدنيا في حجم الفلْكَة ثم يرون نبق الجنة كقلال هجر، كما رأوا ظل الشجرة من شجر الدنيا وقدر امتداده ثم يرون الشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعه كان ذلك أبين للفضل وأظهر للمزية وأجلب للسرور وأزيد في التعجب من أن يفاجئوا ذلك الرمان وذلك النبق من غير عهد سابق بجنسهما. وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها دليل على تناهي الأمر وتمادي الحال في ظهور المزية وتمام الفضيلة وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذي يستملي تعجبهم في كل أوان"[1] .

ويقول في آية البقرة {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلل من الغمام وقُضي الأمر وإلى الله تُرجع الأمور} : فإن قلت لم يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول، لأن الشرّ إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغمّ كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسرّ. فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؟! ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٦١.

الله قوله تعالى {وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون}[١] وهكذا يمضي الزمخشري مبيناً قيمة المعنى في النص الأدبي فيقول في آية سورة آل عمران {قالت رب إني وضعتها أُنثى والله أعلم بما وضعت} : "فإن قلت : فلم قالت: إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدّر أن تلد ذكراً، ولذلك نذرته محرراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى {والله أعلمُ بما وضعت} تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بقدر ما وهب لها منه ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وما علق به من عظائم الأمور وأن يجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً فلذلك تحسرت.

وفي قراءة ابن عباس {والله أعلم بما وضعتْ} على خطاب الله تعالى لهاك أي إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله من عظم شأنه وعلو قدره.. ولعل الله تعالى فيه سراً وحكمة ولعل هذه الأنثى خير من الذكر تسلية لنفسها. فإن قلت فما معنى قوله {وليس الذكر كالأنثى}؟ قلت هو بيان لما في ق وله : {والله أعلم بما وضعتْ} من التعظيم للموضوع والرفع منه . ومعناه : وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها"[٢] .

---

(١) الكشاف جـ١ ص ٣٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص٤٢٥.

وقد وقف الزمخشري عند قوله الله تعالى {يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها} ليقول : "فإن قلت: الذي يقضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبعث عليها. فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجباً للتقوى وداعياً إليها؟ قلت: لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء. ومن المقدورات عقاب العصاة. فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة، وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله، فقيل اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث جعلكم صنواناً مترعة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه. وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة"[1] .

ولعنايته بإبراز عنصر المعنى وقيمته في النص الأدبي رأيناه يفضل القراءة ويرجحها على غيرها إذا كانت تجري والنسق المعنوي في مضمار وتحفظ على الأسلوب القرآني جماله وقوة معناه. فمثلاً يقول في الآيات التي أجاب بها عاد قوم هود نبيهم هوداً في سورة الشعراء {قالوا سواء علينا أَوَعَظْتَ أم لم تكن من الواعظين إنْ هذا إلاّ خُلُقُ الأولين وما نحن بمُعَذَّبين} يقول : "من قرأ خَلَق بالفتح فمعناه : أن ما

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤٩٣.

جئت به اختلاق الأولين وتخرصهم. كما قالوا {أساطير الأولـــي} – أو معناه ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كمـــا ماتوا ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خُلُق بضمتين وبواحدة بمعناه : مـــا هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه"[١] .

ويقول : "فإن قلت: لو قيل "أوعظت" أم لم تعـــظ كـــان أخصـــر والمعنى واحد. قلت: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق لأن المراد ســـواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكـــن أصـــلاً مـــن أهلـــه ومباشريه، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ"[٢] .

ويقول في الآية من سورة لقمان {ومن الناس من يشـــتري لـــهو الحديث ليُضِلّ عن سبيل الله بغير علم..} الآية" : "قُرئ "ليضل" بضـــم الياء وفتحها.. فإن قلت القراءة بالضم بينة لأن النضر كـــان غرضـــه باشتراء اللهو أن يصد الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القـــرآن ويضلهم عنه فما معنى القراءة بالفتح؟ قلت: فيه معنيان أحدهما ليثبـــت على ضلاله الذي كان عليه ولا يصدف عنه ويزيد فيـــه ويمـــده، فـــإن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصد الناس عنه. والثـــاني أن يوضع "ليَضل" بالفتح موضع "ليُضل" بالضم من قبل أن من أضـــل

---

(١) الكشاف جـ ٣ . ص ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه .

كان ضالا لا محالة فدل بالرديف على المردوف"[١] .

ولذلك فالقراءة المفضلة عنده هي التي تحمل وراءها معنى قوياً يخدم التفسير القرآني ولهذا نراه يفضل قراءة الجماعة – لقوة معناها – على قراءة أنس بن مالك وذلك في قوله تعالى {ضَرَبَ الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعُهَا في السماء} فيقول : "وقرأ أنس بن مالك" كشجرة طيبة ثابت أصلها" .

فإن قلت : أي فرق بين القراءتين ؟ قلت : قراءة الجماعة أقوى معنى لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة. وإذا قلت : "مررت برجل أبوه قائم" فهو أقوى معنى من قولك "مررت برجل قائم أبوه" لأن المخبر عنه إنّما هو الأب لا رجل"[٢] .

فإذا ما أضاعت القراءة من أسلوب القرآن جماله وقوة معناه رفضها وأباها وآثر غيرها مما يحفظ على القرآن الكريم جماله. فيقول في الآية التي تتحدث عن حرص اليهود وا لمشركين على الدنيا ومتاعها واليهود أشد حرصاً {وَلَتَجِدَنَّهُم أَحْرَصَ الناسِ على حياةٍ ومن الذين أشركوا} : "فإن قلت : فلم قال "على حياة" بالتنكير؟ قلت : لأنه أراد حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة، ولذلك كانت القراءة بها أوقع من قراءة "أُبَيّ" "على الحياة" بالتعريف ومن الذين أشركوا محمول على

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٢٣٠.

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٦.

المعنى، لأن معنى "أحرص الناس" أحرص من الناس. فإن قلت: ألم يدخل الذين أشركوا تحت الناس؟ قلت: بلى ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد.. وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعقابه ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقياً بأعظم التوبيخ.

فإن قلت لم زاد حرصهم -أي اليهود- على حرص المشركين ؟ قلت لأنهم علموا لعلمهم بحالهم أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك"[١] .

٢-نمو الفكرة وتصاعدها :

وببصيرته الأدبية الثاقبة ونظرته الفكرية الفاحصة مصاحباً حسّه الرهيف وذوقه الأدبي الرفيع نظراً إلى تطور الشكل الأدبي فحدثنا عن نمو الفكرة وتصاعدها والمعاني التي يتولد بعضها من بعض ويهيئ بعضها لبعض حتى كأن السابق منها يمهد للاحق وتوطئة له مطبقاً ذلك على آي القرآن الكريم.

ففي مجال مواجهة القرآن الكريم للنفس الإنسانية بأخطائها معنفاً أو هاديا يدرك الزمخشري أن القرآن يرتب الآيات ترتيباً عجيباً فتتلو الأفكار بعضها بعضاً وتتلاحق المعاني وتتوالد بكل فكرة في كل آية

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٩٨.

ممهدة للأخرى وبساط لها. يقول في آيات الحجرات التي يواجه القرآن، فيها الصائحين على رسول الله ينادونه من وراء الحجرات: "فورود الآيات على النمط الذي وردت عليه. فيه ما لا يخفى عن الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله"(١)

ويمضي الزمخشري يعدد ما تضمنته الآيات من أفكار يسلم بعضها إلى بعض وتتصاعد بعضها إثر بعض : "منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه، ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائهن ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم ، ومنها أن شفع ذمهم باستخفافهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهويناً للخطب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم وهلم جراً من أول السورة إلى آخرها. فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كأن الأول بساط للثاني ووطاء لذكره، ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطمّ وهجنته أتم من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه على فظاعة ما أجروا إليه

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٥٥٨.

وجسروا عليه، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر لـه بـالقول حتـى خاطب جلّة المهاجرين والأنصار بأخي السرار كان صنيع هؤلاء مـن المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً.

ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب[1] ".

وقد وقف الزمخشري عند مناقشات إبراهيم عليه السـلام لأبيـه وقومه فلحظ أفكاراً مرتبة ومعاني متصاعدة تبدأ بالسؤال اليسير لتنتـهي بإحقاق الحق وإبطال الباطل فاخذ يبين كيـف رتـب إبراهيـم -عليـه السلام- أفكاره ومعانيه.

ولنصغ إليه وهو يفسر قوله تعالى {واتلُ عليهم نبأَ إبراهيمَ إذْ قال لأبيـهِ وقومهِ ما تعبدون ، قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدْعُونَ أو ينفعونكم أو يضرون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون}.

يقول الزمخشري : "وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهِم، ثـم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصـر ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فكره وأخرجه من أن يكون شـبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا فعظّم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجّى في الآخرة من رحمته ثم أتبع ذلـك أن دعـاه بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين ثم وصله بذكر يوم القيامة

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٥٥٩.

وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا أو يطيعوا"[١].

وفي موقف تهذيب النفس وإرشادها إلى طريق الخير التي تبعد بها عن مواطن الرذيلة والقبح وتقربها من مواطن الفلاح والرشد يلمح الزمخشري ترتيب المعاني وتلاحقها وتصاعد الأفكار وتدرجها ترتيباً يلائم طبيعة النفس ويتسق مع أحوالها حيث تتوالى إلى الأوامر وتتصاعد.

يقول في قوله تعالى {قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم} إلى قوله تعالى {وليَسْتَعْفِفِ الذينَ لا يجدونَ نكاحاً حتى يُغْنِيهُمُ اللهُ من فضلِهِ} : "وما أحسن ما رتب هذه الأوامر حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه".[٢]

وكما وقف الزمخشري يستنبطن ترتيب الآيات القرآنية ليظهر أن ترتيب الأفكار في بعضها على النمط الذي وردت فيه إنما جاء على هذه الصورة ليلائم طبيعة النفس ويتسق مع أحوالها حيث تتوالى الأوامر وتتصاعد حسب الأحوال والمقامات وقف كذلك مع آيات أخر ليري أن ترتيب الأفكار فيها كان على أساس ما يعن للنفس من خواطر وأفكار

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ١١٨ز

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٦٥.

فجاءت الجمل مرتبة على وفق ترتيب هذه الخطرات من ذلك ما يقوله في قوله تعالى {ما يفعلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إنْ شَكَرْتُم وآمَنْتُم وكان اللهُ شاكراً عليما} إذ يقول : "فإن قلت : لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت : لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعم العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكراً مبهماً فإذا انتهى به النظر إلى معرفة النعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً ، فكان الشكر متقدماً على الإيمان وكأنه أصل التكليف ومداره"(١) .

ومن ذلك أيضاً ما يقوله في قوله تعالى {إيّاك نعبدُ وإياكَ نستعين اهدِنَا الصّراطَ المستقيم} حيث رتب طلب الهداية على عبادة الله سبحانه والاستعانة به فرتب النتائج على المقدمات" .

يقول الزمخشري : "فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت : ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت: فلم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها – فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة ؟ قلت : ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة ، ويكون قوله "اهدنا" بياناً للمطلوب من المعونة كأنه قيل : كيف أعينكم؟ فقالوا: {اهدنا الصراط المستقيم} وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض"(٢) .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٥٧٥.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٦٥ ، ٦٦.

٣-دراسة الأسلوب الأدبي في القرآن الكريم :

كان النظر في الأساليب الأدبية القرآنية واختلاف دلالاتها وتنوع مظاهرها، موضع اهتمام الزمخشري وقد عالج تلك الأساليب بأسلوب أدبي رفيع ينم عن مدى بصره بالعربية وحذقه لأساليبها وعمقه في تفهم ما ترمي إليه. تلك الأساليب في القرآن الكريم حيث عرض لأسلوب الالتفات والتعريض والتكرير وغيرها من الأساليب.

وقد رأى أن الأسلوب القرآني يجري أحياناً على أسلوب الشعر في مساءلة الرسوم على عادة الشعراء الجاهليين قبل أن ينزل القرآن.

يقول في تفسير آية الزخرف {واسأَلْ مَنْ أرسلنَا من قَبْلِكَ من رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا من دونِ الرحمنِ آلهةً يُعبَدون} : "ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته . ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظراً وفحصاً نظرة في كتاب الله المعجز المصدِّق لما بين يديه وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزِّل به سلطاناً . وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها"(١) .

ثم يقول : "والسؤال الواقع مجازاً عن النظر حيث لا يصح السؤال عن الحقيقة كثير. منه : مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال وقول من قال: سل الأرض من شق أنهارَكِ وغَرَسَ أشجارَكِ وجنى ثِمارَكِ فإنها إن لم تحبك حواراً أجابتكَ اعتباراً"(٢) ويقول في تفسير قوله تعالى

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٤٩٠.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٤٩١.

{لإيلافِ قريشٍ} : المعنى عجبوا لإيلاف قريش، ومتعلق بما قبله أي فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش وهذا بمنزلة التضمين في الشعر"[١] كذلك رأى أن الأسلوب القرآني يجري على أسلوب الشعر في الفاصلة إذ أن الفواصل القرآنية يتحد نغمها الصوتي، وفي وحدة النغم تأثير يبلغ مداه في نفس القارئ والسامع. يقول في آية الأحزاب {وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكُبَرَاءنا فأضلونا السبيلا}. وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر وفائدتها الوقوف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مُستَأنَف[٢] .

ويقول في قوله تعالى {وتبتَّلْ إليهِ تبتيلاً} : "فإن قلت كيف قيل تبتيلا مكان تبتلاً؟ قلت: لأن معنى تبتل بتل نفسك – أي انقطع إلى ربك– فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل"[٣]

ولذلك رأيناه –وهو الشاعر – يجيء بالشعر الذي يتضمن معنى الآيات التي يفسرها – والأمثلة على ذلك كثيرة. من ذلك قوله في تفسير قول الله عز وجل: {أولئكَ الذينَ اشتَرَوُا الضلالة بالهُدَى فما رَبِحَتْ تجارَتُهُم}.

يقول الزمخشري : "ومعنى اشتروا الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به على سبيل الاستعارة لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر . ومنه:

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ٢٨٧ والتضمين هو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله لا يصح إلا به.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٢٧٤.

(٣) الكشاف جـ ٤ ص ١٧٧.

أخـذت بالجمـة رأسـا أزعـرا وبالثنايـا الواضحـات الـدردرا

وبـالطويل العمـر عمـراً حيـدرا كما اشـترى المسـلم إذ تنصـرا[1]

ويقول:

فإن قلت: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ قلت : جعلوا لتمكنهم منه وإعراضه لهم كأنه في أيديهم فـإذا تركـوه إلـى الضلالة قد عطلوه واستبدلوها به، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التـي فطر الناس عليها. فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة. والضلالـة الجور عن القصد وفقد الاهتداء .. فإن قلت: هب أن شـراء الضلالـة

---

(١) الجمة = مجتمع شعر الرأس ، والأزعر = قليل الشعر، والثنايا الواضحات = الأسنان النظيفة البيضاء اللامعة، والدردرا = مغارز أسنان الصبي والمراد لثة خالية من الأسنان . والحيدرا = القصير أو الهالك . والمعنى: أن حالي في الاستبدال كحال رجل استبدل بالسمين الغث وفضل الهالك الردئ على النفيس الغالي، وهو المسلم الذي استبدل بالإسلام النصرانية واختارها عليه. والمسلم الذي تنصر هو "جبلة بن الأيهم" وكان على دين النصرانية، فقدم مكة في أحسن زيّ وأسلم وطاف بالكعبة، فوطئ رجلٌ محرمٌ إزاره فلطمه "جبلة" ، فشكا الرجل إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فحكم أن يقتص باللطمة، فسأله جبلة أن يؤخره إلى الغد ولكنه سار ليلاً ولحق بالروم وتنصر وندم على ما فعل وقال:

تنصرتُ بعد الحق عاراً للطمة ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر

وأدركني فيها لجاج حميّة فبعت لها العين الصحيحة بالعور

فيا ليت أني لم تلدني وليتني صبرت على القول الذي قاله عمر

ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة وكنت أسيراً في ربيعة أو مُضر

ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال، فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثم مبايعة على الحقيقة؟ قلت: هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقا وهو المجاز المرشح"[١]

ويستشهد على ذلك بقول الشاعر:

ولما رأيت النسر عزّ ابن دأية وعشش في وكريه جاش له

[٢]

ويقول: "لما شبه الشيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر ونحوه قول بعض فتاكهم في أمه:

فما أم الرديـن وإن أدلت بعالمة بأخلاق الكرام

إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقناه بالحبل التؤام

أي إذا دخل الشيطان في قفاها استخرجناه من نافقائه بالحبل المثني المحكم. يريد إذا جردت وأساءت الخلق اجتهدنا في إزالة غضبها وإماطة ما يسوء من خلقها. استعار التقصيع أولاً ثم ضم إليه التنفق ثم الحبل التؤام. فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء اتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه تمثيلاً لخسارهم وتصويرا لحقيقته[٣].

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣. وترشيح المجاز أن تقرنه بصفة تلائم معناه الحقيقي.

(٢) يريد بالنسر = الشيب ، وبابن دأيه =الغراب ، والوكرين = الرأس واللحية.

(٣) الكشاف جـ١ ص ١٩٤ . والتقصيع والتنفق = هما الطريقان المؤديان إلى حجر اليربوع أولهما التقصيع وهو الطريق المستوي والثاني التنفق وهو الطريق الملتوي.

ويقول في تفسير قوله تعالى {إنَّ الله لا يستحيي أن يضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فَوْقَهَا} : "وَقعت هذه العبارة في كلام الكفرة فقالوا: أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟ فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال، وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب منه قول أبي تمام:

من مُبْلِغ أفناء يعرب كلها أني بنيت الجار قبل المنزل

فالذي سوغ بناء الجار هو مراعاة المشاكلة، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ولله درّ أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشُعَبِهَا لا تكاد تستغرب منها فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأشد مدارجه.

وقد استعير الحياء فيما لا يصح فيه كقوله:

إذا ما استحين الماء يعرض نفسه كرعن بسبت في إناء من الورد[1]

ويستشهد ببيت لرؤبة بن العجاج – وهو أمضغ العرب للشيح والقيصوم المشهود له بالفصاحة – على أن اشتقاق البعوض من البعض وهو القطع فيقول: "وأنشد رؤبة:

لنعم البيت بيت أبي دثار إذا ما خاف بعض القوم بعضا[2]

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٣، ص ٢٦٤. والضمير في "استحين" بمعنى تركن للنوق، وكرعن أي شربن، والسبت = الجلود المدبوغة بالقرظ والمراد مشافرها ومعنى البيت : يصف الشاعر كثرة مياه، المطر في طريقه ، وأنه أينما ذهب رأى الماء. فكانه يعرض نفسه عليها فتكرع به بمشافرها كأنها الجلود المدبوغة والأرض قد أنبتت الأزهار والأنوار فكأنها لذلك إناء من الورد.

(٢) الكشاف جـ١ ص ٢٦٤.

يريد أن بيت أبي دثار نعم البيت في ليالي الصيف إذا خاف بعض القوم بعض البعوض أي قطعه. وفي ختام تفسيره للآية يقول : "فسبحان من يدرك صورة تلك البعوضة وأعضاءها الظاهرة والباطنة وتفاصيل خلقتها ويبصر بصرها ويطلع على ضميرها.

ولعل في خلقه ما هو أصغر منها وأصغر {سبحانَ الذي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا ممّا تُنْبِتُ الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون} – ويتمثل بما نظم من شعر فيقول: وأنشدت لبعضهم :

يا من يرى مدِّ البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النُّحَّلِ

اغفر لعبد تاب عن فَرَطَاتِهِ ... ما كان منه في الزمان الأولِ[1]

فالأبيات تفسير أدبي للآية الكريمة إذ تكشف عن دقة صنع الله في خلقه {صُنْعَ اللهِ الذي أَتقَنَ كُلَّ شيءٍ} ويستشهد ببيت من الحماسة على أن الموصوف المؤنث يمكن أن تأتي صفته مجموعة ويمكن أن تأتي مفردة وذلك قوله في تفسير قوله تعالى {وأزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ} فيقول : "فإن قلت فهلاّ جاءت الصفة مجموعة كما في الموصوف؟ قلت: هما لغتان فصيحتان . يقال النساء فعلن وهن فاعلات وفواعل والنساء فعلت وهي فاعلة ومنه بيت الحماسة :

وإذ العذارى بالدخان تقنّعت ... واستعجلت نصب القدور فملت[2]

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٢.

كذلك يستشهد ببيتين لامرئ القيس على أن الخلد هو الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع ويقول: "قال الله تعالى: {وما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ من قَبْلِكَ الخُلْد أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُون} وقال امرؤ القيس :

ألا أنعم صباحاً أيها الطلل البالي ... وهل ينعمن من كان في العصر

وهل ينعمن إلا سعيد مخلّدٍ ... قليل الهموم ما يبيت بأوجال

ويستشهد بشعره أيضاً عند تفسيره لقول الله عز وجل {مالِكِ يومِ الدِّينِ إيّاكَ نعبُدُ وإيّاكَ نستعين} ويعد هذا من أساليب النظم العالي والنسق الراقي فهو من قبيل الالتفات الذي جرى عليه البيان القرآني ففيه نشاط للسامع وإيقاظ للمشاعر وتنبيه الغافل وهذه الصفات من أهم خصائص الأسلوب الأدبي.

يقول الزمخشري : "فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان ، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى {حتّى إذا كُنْتُم في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم} وقوله تعالى {واللهُ الذي أَرْسَلَ الرياحَ فتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ} وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات حين قال:

تطاول ليلك بالإثمد ... ونام الخلي ولم ترقدِ

وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العاثر الأرمدِ

وذلك من نبأ جاءني ... وخبرته عن أبي الأسودِ

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا

نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وقد تختص بواقعة بفوائد"[١].

كما يستشهد بشعر لأبي نواس في تفسير قوله تعالى {إِنَّ إِبراهيمَ كانَ أمةً قانتاً لله حنيفاً} ويقول إنه – أي إبراهيم – كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد[٢]

ويستدل ببيت الحماسة على أن العادة جرت في الأشياء التي تتلاقى في الفضل أن تختلف وجهات نظر الناس فيها فيقول في قوله تعالى {وما نُريهِم من آيةٍ إلاّ هيَ أكبرُ منْ أُختِهَا} : فإن قلت: هو كلام متناقض لأن معناه ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة[٣] ، قلت: الغرض بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك

---

(١) الكشاف جـ١ ص ٦٢ – ص ٦٤ . وقد بين الزمخشري بعض هذه الفوائد فقال: "ومما اختص به هذا الموضع انه لما ذكر الحق بالحق وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق الثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا بهط.

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٤٢٣.

(٣) يرد الزمخشري : أن في ظاهر أسلوب الآية شيئاً من الغموض والتناقض. وهنا نراه يحلل ذلك تحليلاً أدبياً مبيناً وجه استقامة أسلوب الآية على طريقة الأدب فيجيب بما أثبتناه أعلاه.

العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفـــاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هـــذا وتـــارة يفضل ذاك ومنه بيت الحماسة:

من تلق منهم تقـــل لاقيـــت سـيدهم مثل النجوم التي يسري بها الســـاري

ويستطرد الزمخشري فيقول : "وقد فاضلت الأنمارية بين الكلمـــة من بنيها ثم قالت لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت : "ثكلتـهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة في الـــهواء لا يـــدري أيـــن طرفاها"[1] .

وفي حل نكاح السبايا أزواج الكفار اللائي أُسرن فـــي الحـــروب ووقعن أسارى في أيدي المؤمنين. وهو ما تضمنته الآية الكريمـــة مـــن سورة النساء {والمحصَنَاتِ مِنَ النّساءِ إلاّ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم} يقول : "يريد ما ملكت أيمانهم من اللائي سبين ولهن أزواج في دار الكفر فهن حـــلال لغزاة المسلمين وإن كنّ محصنات – أي متزوجات – ثم يقول:

وفي معناه قول الفرزدق:

وذات حليـــل أنكحتـــــها رماحنـــــا حلال لمن يبنـــي بـــها لـــم تطلـــق[2]

وعند تفسيره لقول الله تعالى {وَلْيَخْشَ الذينَ لو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِـــهِم

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٤٩١.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥١٨.

ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عليهم} يستأنس بشعر شاعر من شعراء الخوارج عنّفه قومه على عدم الخروج معهم للقتال فاعتذر بسبب ذرية له ضعاف.

يقول الزمخشري : ".. معناه : وليخش الذين صفتُهُم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافاً – وذلك عند احتضارهم – خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم كما قال القائل:

لقد زاد الحياة إليّ حباً ... بناتي أنهن من الضعاف

أحاذر أن يرين البؤس بعدي ... وأن يشربن رنقاً بعد صافي[1]

ويستشهد ببيت للمتنبي في تفسير قوله الله عز وجل {فلمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ} حديثاً عن النسوة اللائي قلن : {امرأةُ العزيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عن نفسِهِ قد شَغَفَهَا حُبّاً إنّا لَنَرَاها في ضلالٍ مبين فلمّا سَمِعَتْ بمكْرِهِنّ أرسلتْ إليهنّ وأعتَدَتْ لَهُنّ مُتَّكَأً وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ مِنْهُنّ سِكِّيناً وقالت اخْرُجْ عليهنّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ} يقول الزمخشري مفسراً الكبر بالحيض : "وقيل أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة إذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر، لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر. وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع ... فإن لحت حاضت في الخدور

ويتمثل بالمتنبي أيضاً في قوله تعالى {فكيفَ تتقونَ إنْ كفرتم يوماً يجعَل الوِلْدَانَ شِيباً}. ويقول : "مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد يوم

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٠٤ . والرنق = كدر الماء.

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣١٧.

يشيب نواصي الأطفال. والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب قال أبو الطيب،

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم[١]

ويتمثل بقول أبي نواس عند تفسير قوله تعالى {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سوءُ عَمَلِه فرآهُ حَسناً فإنّ الله يُضِلُّ من يشاءُ ويهدي من يشاء} فيقول : "ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح حتى يستوجب بذلك خذلان الله تعالى وتخليته وشأنه، فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق آمر النهي ويتنق طاعة الهوى حتى يرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ويقعد تحت قول أبي نواس:

اسقني حتى تراني حسناً عندي القبيح[٢]

ويستدل على أن "إلا" بمعنى القرابة في قوله تعالى {لا يَرقُبُونَ في مُؤْمِنٍ إلاًّ ولا ذِمَّة} يقول حسان رضي الله عنه:

لعمرك إن إلّك من قريش كإل السقب من رأل النعام[٣]

وغير ذلك كثير ولكنني أكتفي بما ذكرت من أمثلة ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى الكشاف ليرى كثيراً من الشواهد الشعرية مبثوثاً في ثنايا تفسيره لآيات الكتاب العزيز.

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ١٧٨ .

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٣٠١.

(٣) انظر الكشاف جـ ٢ ص ١٧٦. الإلّ = القرابة ، والسقب = خوار الناقة ، والرأل = ولد النعام. ومعنى البيت : أنه لا قرابة بينك وبينهم كما أنه لا قرابة بين السقب وولد النعام.

بقيت معلومة تجب الإشارة إليها وهي أن الشعر عنده فن هادف فهو يرى أنه مقبول ما لم يدفع إلى معصية. يقول في الآيات {والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون أَلَمْ تَرَ أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلاَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذَكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلِمُوا} : استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة، وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم قال الله تعالى : {لا يُحِبُّ اللهَ الجهرَ بالسوءِ من القولِ إلا من ظُلِم} وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليهِ بِمِثْلِ ما اعتدى عليكم}. ويستطرد فيورد رأي من يعتد به ويشهد له بصلاحه وورعه وتقواه فيقول : وعن عمرو بن عبيد أن رجلاً من العلوية قال له : إن صدري ليجيش بالشعر فقال فما يمنعك منه فيما لا بأس به والقول فيه أن الشعر باب من الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام.

والمراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبان : كعب بن مالك وكعب بن زهير والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : "اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد

.عليهم من النبل" وكان يقول لحسان "قل وروح القدس معك"[١] .

وهكذا يمضي الزمخشري يدرس الأساليب الأدبية في القرآن الكريم مستجليا ما تهدف إليه من روعة بيان ودقة أداء كاشفاً عن حسنها منبهاً إلى مواطن الحسن في كل أسلوب.

وأسلوب التكرار من الأساليب التي وقف عندها الزمخشري وقفة تأمل وتدبر ليرد هذا الأسلوب بصوره التي ورد عليها إلى صلته المباشرة بالنفس الإنسانية فقد رأى أن في التكرير تقريرا للمعاني في النفوس وتثبيتاً لها في الصدور: "ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم واثبت للذكر وأبعد من النسيان .. ..لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذهنا أو يصقل عقلاً طال عهده أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ"[٢] .

ولهذا فهو يعرض لتكرار النداء في سورة غافر مستوحياً اللفظ المكرر وما له من أثر في استجابة النفس فيقول في قوله تعالى {وقالَ الذي آمنَ ياقومِ اتّبِعُوني أهدِكُم سبيلَ الرشاد ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار.. .. ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاةِ وتدعونني إلى النار} يقول : "فإن قلت لم كرر نداء قومه؟ قلت: لأن تكرير النداء فيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة وفيه أنهم قومه

---

(١) انظر الكشاف جـ ٣ ص ١٣٣ ، ص ١٣٤.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ١٢٧ .

صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً"[١] .

ويقول عن الآية التي تتحدث عن الزاني والزانية {ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر} : من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه"[٢] .

وما يقوله في الآيات التالية منبئ عن استيحائه واستبطانه الأسرار النفسية في الآيات: {فاستفتهم ألربكَ البناتُ ولهم البنونَ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولونَ ولَدَ اللهُ وإنهمُ لكاذبون * أصْطَفَى البناتِ على البنينَ ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكَّرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين}. غذ يقول : "هذه الآيات صادرة عن سخط عظيم وإنكار فظيع واستبعاد لأقاويلهم شديد، وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش وتجهيل نفوسها واستركاك عقولها مع استهزاء وتهكم وتعجيب من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ويحدث به نفساً فضلاً أن يجعله معتقداً ويتظاهر به مذهباً"[٣] .

والأسلوب القصصي له نصيب في الفكر الأدبي لدى الزمخشري . فهو يعرض للأسلوب القصصي ويثبت في كشافه ما أثر من تفاسير قصصية للآيات القرآنية، ويقر هذه القصص إذا كانت لا تصطدم والعقيدة . فما لا يمس عقيدة ولا يطعن في عصمة نبي كان يتسمح فيه

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤٣٣ .

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٤٧.

(٣) الكشاف ج٣ ص ٣٥٥.

ويورده ولو كان أشبه بالأسطورة والخيال. وذلك في رأيي يرجع إلى ثقافته الأدبية التي تدفعه إلى أن يقف أمام بعض الآيات فيستطرد استطرادات أدبية باحثاً عن الجمال فيها فمثلاً يقول عند الآية {حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سِتْرا} : "وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ومعي صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف طلعت الشمس. قال: فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشي عليّ ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربالهم فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم"[١] .

وفي آية الأعراف {فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين} يقول : "روى أنه كان ثعباناً ذكراً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك وهرب الناس وصاحوا وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفا ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل. فأخذه موسى فعاد وعصا"[٢] . ويقول عند الآية : {ويطوف عليهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إذا رأيتهم حَسِبْتَهُم

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤٩٨.

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ١٠١.

لُؤْلُؤاً منثوراً} وعن المأمون أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن ابن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال لله درّ أبو نواس كأنه أبصر هذا حيث يقول:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء دُرّ على أرض من الذهب[١]

ويذكر عند قول الله عز وجل {يوماً يجعل الوِلْدَانَ شِيباً} أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة[٢] فقال : رأيت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يُقادون في السلاسل إلى النار فمن هول ذلك أصبحت كما ترون"[٣] .

وفي حديثه عن يوسف عليه السلام يقول : "وعن النبي صلى الله عليه وسلم : مررت فى الليلة التي عُرج بي إلى السماء فقلت لجبريل من هذا؟ فقال : يوسف. فقيل : يا رسول الله كيف رأيته؟ قال : كالقمر ليلة البدر" وقيل كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يُرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يُرى نور الشمس من الماء عليها. وقيل ورث الجمال من جدته سارة"[٤] .

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ١٩٩.

(٢) الثُغامة – قال ابن الأعرابى: الثغامة شجرة تبيض كأنها الثلج وأنشد:

إذا رأيت صلعا في الهامة وحد بابعد اعتدال القامه

وصار رأس الشيخ كالثغامة فيأس من الصحة والسلامة

(٣) الكشاف جـ ٤ ص ١٧٨.

(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٣١٧.

ويقول : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم "قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل. والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون" فذلك قوله تعالى {ولقد فتنّا سليمان} وهذا ونحوه مما لا بأس به".

أما النقول القصصية التي تطعن عصمة الأنبياء وتجرحها فإن الزمخشري يزيفها ويرفضها بشدة يقول :"وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان فالله أعلم بصحته. حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر وأن بها ملكاً عظيم ا لشأن لا يُقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج إليه تحمله الرياح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها "جرادة" من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقأ دمعها حزناً على أبيها. فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدون له كعادتهن في ملكه فأخبر "آصف" سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً، وكانت له أم ولد يقال لها "أمينة" إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها، وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً وأتاها الشيطان صاحب البحر وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه "صخر" على صورة سليمان، فقال : يا أمينة خاتمي، فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والإنس و الجن.

وغيّر سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فانكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوهن ثم عمد إلى السمّاكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عُبد الوثن في بيته فأنكر "آصف" وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل "آصف" نساء سليمان فقلن : ما يدع امرأة منّا في دمها ولا يغتسل من جنابة. وقيل بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً ورجع إليه ملكه وجلب صخرة "لصخر" فجعله فيها، وسدّ عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر. وقيل لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له آصف: إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقر في يدك فتب إلى الله عز وجل[1] ".

ويعلق الزمخشري على هذه القصة رافضها كل الرفض ويأباها الإباء كله فيقول: "ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا : هذا أباطيل اليهود والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح. أما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ألا ترى إلى قوله {من محاريب وتماثيل} . وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه وإذا كان بغير علمه فلا عليه"[2].

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٧٤.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٣٧٥.

عمر: لسماعي هذا الكلام أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس"[١].

كذلك استطاع الزمخشري بحسّه الرهيف أن يفرق بين الأسلوب الخشن الغليظ وبين الأسلوب اللين الرقيق. وأجد له في هذا المقام إحساساً دقيقاً بمواقع الكلمات وإصابتها وتفاعلاً صادقاً مع ما تحتويه كلمات كل أسلوبٍ معتمداً على ذوقه الخاص في هذا المجال. يقول في قوله تعالى {قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَه} :"دعاء عليه وهو من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها . "وما أكفره" تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن مساً ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المذمة مع تقارب طرفيه ولا اجمع للأئمة على قصر متنه"[٢] .

وما أجمل وأروع ما يقوله في قوله تعالى {يَمُنُّونَ عليكَ أن أسلَموا قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامكُم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان} إذ يقول : "وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة وذلك أن الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلاماً ونفى أن يكون كما زعموا إيماناً فلما منُّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام: إن هؤلاء يعتدّون عليك بما ليس جديراً بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام فقل لهم لا تعتدوا علي إسلامكم أي حدثكم المسمى عندي إسلاماً لا إيماناً، ثم قال بل الله يعتد عليكم أن أمركم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٦٦.

(٢) الكشاف جـ ٤ ص ٢١٩

أرشدتم إليه ووفقتم له إن صح زعمكم وصدقت دعواكم، إلا أنكم تزعمون وتدعون والله عليم بخلافه، وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الإيمان غير مضاف ما لا يخفى على المتأمل"[١] .

كما وازن بين أسلوب وأسلوب من حيث مشابهتهما في المعنى والهدف ودعا إلى النظرة المتثبتة في النصوص الأدبية والموازنة الدقيقة بين ما تشابه منها حتى يتسنى لدارس الأساليب الأدبية أن يعرف أقواها فيما ترمي إليه.

يقول في حديث الإفك : "ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة لم تر الله تعالى قد غلّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركّب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة ، كل واحد منها كاف في بابه ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة وبأن ألسنتهم وايديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك أنه الحق المبين، فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة وما أدراك إلا لأمر"[٢] .

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٥٧١ ، ٥٧٢.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٥٦ ، ٥٧.

٤-إيحاءات الألفاظ :

وقد عنى الزمخشري بإيحاءات الألفاظ في النص القرآني وبيان قيمتها الأدبية في إبراز أسرار القرآن الكريم ووجوه إعجازه حيث تنبه لإيحاءات الألفاظ وما تلقيه من خلال أن اللفظ رمز لمعناه فالكلمة رمز للفكرة وقيمتها فيما ترمز إليه وتوحي به فليس الفهم الأدبي وقوفاً عند المدلولات اللغوية في الأساليب الأدبية وإنما هو ذهاب وراء هذه الأساليب وبحث في أضواء كلماتها وتسمع للمسات إيحاءاتها والناس في هذا مختلفون كل حسب قدرته.(١)

وقد كان الزمخشري أديباً مرهف الحس دقيق الشعور نافذاً بطبيعته الأدبية إلى ما وراء ظاهر النصوص وهذه المقدرة تتجلى في إدراكه لما توحي به الأساليب من المعاني البعيدة عن متن ألفاظها والتي لا يتنبه إليها إلا القليل من ذوي الفطنة على حد قوله: "وأسرار التنزيل ورموزه بالغة من اللطف والخفاءء حداً يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره"(٢) .

ونعرض هنا لبعض النماذج التي كان يلتفت فيها إلى تلك المعاني البعيدة التي توحي بها ألفاظها.

من ذلك ما توحي به لفظتا (ولدها وولده) من الشفقة والحنو في قول الله تعالى : {لا تضارَّ والدةٌ بِوَلَدِهَا ولا مولود لَهُ بِوَلَدِه} حيث يقول:

---

(١) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د/ محمد أبو موسى ص٤٧٠.

(٢) الكشاف جـ ٤ ص ١٣١.

"لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه وأنه ليس بأجنبي منها فمن حقها أن تشفق عليه وكذلك الوالد"(١) .

وللفظتي (كسبت واكتسبت) إيحاءات وظلال نفسية يدركها الزمخشري ويفصح عنها حين يعرض لقول الله عز وجل {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} فيقول: "فإن قلت لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب؟ ويجيب بقوله : في الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال"(٢) .

وكلمة "كل" في قول الله تعالى {يأتوك بكل سحّار عليم} يستشف منها الزمخشري معنى نفسياً يوحي باضطراب نفسية فرعون فيقول: "فجاءوا بكلمة الإحاطة ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه"(٣) .

ويقف عند لفظة "وجه" في قوله تعالى {يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أبيكم} وما توحي به هذه الكلمة من فرط حب يعقوب ليوسف عليهم السلام وأخيه بنيامين وإيثارهما بمزيد من الحبّ دون بقية أبنائه وهو ما يشير إليه قولهم {لَيُوسُفُ وأَخوهُ أَحَبُّ إلى أبينا منّا ونحن عصبةٌ إنّ أبانا لفي ضلال مبين} لهذا أكادوا له ودبروا أمرهم بليل إما أن يقتلوا يوسف أو يطرحوه أرضاً ليظفروا من أبيهم بالمكانة التي يحتلها يوسف.

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٧١.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٠٨.

(٣) الكشاف جـ ٣ ص ١١٢.

يقول الزمخشري : "فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه"(١) .

وبفكر أدبي واع وفهم عقلي مستنير لأسرار الذكر الحكيم أدرك الزمخشري أن القرآن الكريم كتاب تهذيب وتقويم وأن طريقته في التهذيب والتقويم هي النفاذ إلى النفس الإنسانية وقيادتها من داخلها وطريقة التلويح والإيحاء طريقة لا تخطئ في الوصول إلى النفس وإيقاظها والتأثير فيها حتى تستقيم على طريق الجادة وأن اللفظ القرآني غني بالإيحاءات التي تهذب النفوس الإنسانية وتقوم الطباع البشرية.

من ذلك ما يقوله عند تفسيره لقول الله عز وجل {وعصى آدمُ ربَّهُ فَغَوى} : "فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافة وكأنه قيل لهم انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة عبر المغفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر فضلاً أن تجسروا على التورط في الكبائر"(٢) .

ومن هذا القبيل ما يفصح عنه الزمخشري عن سر العدول إلى لفظ الإجرام وكيف يلوح الله للكافرين بهذا اللفظ {وكذلك نجزي المجرمين} ليؤذن أن الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب وأن كل من أجرم عوقب وقد كرر فقال : {وكذلك نجزي الظالمين} لأن كل مجرم ظالم لنفسه"(٣)

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٣٠٥.

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٥٧.

(٣) الكشاف جـ ٢ ص ٧٩ .

ويقول في قوله تعالى : {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون} : "وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماحته وتخييل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم"[١].

ويقف الزمخشري مستوحيا معاني الاحتقار والازدراء من كلمة (أدبر) التي وصف بها فرعون في قوله تعالى {ثم أدبر يسعى} ويكشف ما تلوح به كلمة (ذرأ) من تجهيل المشركين وغفلتهم في قوله تعالى {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً}[٢] .

ويشير إلى ما توحي به كلمة أخ من معاني المحبة والمودة التي تحبب العفو وتدعو إلى أن يصفح ولي الدم في قوله تعالى {فمن عُفِيَ لَهُ من أخيهِ شيءٌ}[٣] .

ويشير كذلك إلى ما في لفظ (الخرطوم) من الاستخفاف والاستهانة في قوله تعالى {سَنَسِمُهُ على الخُرْطُوم}[٤] وما توحي به كلمة (بارئكم) في نداء موسى عليه السلام لبني إسرائيل في قوله تعالى {فتوبوا إلى بارئكم} من معنى التقريع واللوم لتركهم عبادة الباري – أي الذي خلق الخلق بريا من التفاوت – إلى عبادة البقر وهي مثل في البلادة"[٥] .

ويتأمل الزمخشري لفظ "غير يسير" في قوله الله عز وجل {على

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٧٨.
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٥٢.
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٣٣٢.
(٤) الكشاف جـ ٤ ص ١٤٣.
(٥) الكشاف جـ ١ ص ٢٨١.

الكافرين غير يسير} فيوضح لنا أن هذا اللفظ يوحي بزف البشرى للمؤمنين فإنه لما قال {يوم عسير على الكافرين} فقصر العسر عليهم قال "غير يسير" ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم"(١) .

ويمضي الزمخشري بفكر الأديب وذوق الناقد البصير فيلحظ ما يوحي به التعبير القرآني من إكبار وإجلال مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الله تعالى {إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} ويكشف للزمخشري عما تضمنته هذه الآية من إيحاءات لمعان نفسية كامنة وراء هذا التعبير تتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم ويقول : "فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله، منها : مجيئها على النظم المسجل على الصائحين بالسفه والجهل لما أقدموا عليه ، ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه، ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم.. ومنها أن شفع ذمّهم باستخفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهويناً للخطب على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم"(٢)

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ١٨١.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٥٥٨.

كذلك وقف الزمخشري عند الألفاظ المؤنثة والمذكرة فأدرك أن اللفظ المؤنث يوحي باللين والرقة والسهولة وأن الكلمة المذكرة توحي بالشدة والجزالة والصلابة إذ يقول في قول الله تعالى من سورة الزمر {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنّ الله، قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بِضُرٍ هل هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّهِ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته}: فإن قلت: لم قيل: كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله {ويخوِّفونكَ بالذين من دونه}؟ قلت: أنَّثهن وكن إناثاً وهن اللات والعزى ومناة .. ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة، كأنه قال: الإناث اللاتي هن اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهن وأعجز"[١] .

ويقف عند الإشارة إلى الشمس بلفظ المذكر في قوله تعالى {فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي} ليبين لنا أن ذلك يوحي بصيانة الله سبحانه وتعالى عن شبهة التأنيث وذلك ما يوضحه قوله : "وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث. ألا تراهم قالوا في صفة الله "علاّم" ولم يقولوا علامة وإن كان العلاّمة أبلغ؟ احترازاً من علامة التأنيث"[٢] .

وهكذا يقف الزمخشري عند هذا اللون الأدبي من إيحاءات الألفاظ ليكشف أن للّفظ إشاراته الخفية التي هي جزء من المعنى القائم به.

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٩٩.

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٢.

٥-الربط الفني بين اللفظ والمعنى :

وقد اهتم ببيان ما ينطوي عليه الأسلوب الأدبي من شدة الربط الفني في نظم الكلام وقوة العلاقات بين المعاني والألفاظ القرآنية. وهو ما عبر عنه بالنظم، وما يعبر عنه النقاد بالشكل أو الصورة "فمن مجموع العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية"(١) . وللزمخشري في ذلك دروس قيّمة وتوجيهات صائبة أراها من أجلّ الدروس المفيدة في النقد الأدبي ففيها يستشرق آفاقاً فنيّة عالية ويلمح فيها معاني أدبية رفيعة يحرص عليها كل ناقد ذو بصر ثاقب وحسّ رهيف في محاولة لإبراز اسرار التنزيل كما سيتضح ذلك من خلال تفسيره لآي الذكر الحكيم خذ مثلاً لذلك قوله في الفرق بين حرفي الجر "في" و "على" في قوله تعالى {وإنا أو إياكم لعلي هدى أو في ضلال مبين} إذ نراه يقول : "فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعمل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه"(٢) .

ويقول في قوله تعالى {والله الذي أرسل الرياح فتُثيرُ سحاباً فسُقْنَاهُ} : "فإن قلت : لم جاء "فتثير" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٥٢ . تعليق وشرح د/ محمد عبد المنعم خفاجي.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٢٨٩.

الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شراً:

بأني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت صريعاً لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هوان وثباته عند كل شدة، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا وأحيينا بعد ولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه".[1]

ولنرجع إلى الآيتين الأوليين من سورة البقرة : {ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} فسنجده يحاول الربط بين تأليف الكلام وتعليل روعته البلاغية ملاحظاً أن معنى {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين} أنه "هو الكتاب الكامل" مدخلاً هكذا ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر ليدل على أن التركيب يفيد الحصر وواصفاً الكتاب بالكامل ليدل على أن اللام فيه للجنس ، وأن المقصود من حصر الجنس حصر الكمال ، يعول : "كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص وأنه هو الذي

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٠٢ والغول = السعالي ، والعرب تسمي كل داهية غولاً، والسهب الفضاء البعيد من الأرض، والصحيفة =ا لكتاب، وقاع صحصحا وصعصعان = أي مستو ، والجران = مقدم العنق من مذبحه إلى منحره.

يستأهل أن يسمى كتاباً كما تقول هو الرجل أي الكامل في الرجولة الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال"[١] .

ويقف عند نفي الريب على سبيل الاستغراق – لأن النفي المسلط على المنكرة يفيد العموم – مع أن هناك من كانوا يرتابون في القرآن بسبب شركهم.

وينتهي إلى رأي دقيق في هذه المسألة وهو : أن المنفي ليس هو الارتياب وإنما المنفي كونه متعلقاً للريب ومظنة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يشك فيه[٢] .

ويقول : "إن تقديم الريب على الجار والمجرور يفيد أن القرآن حق وصدق لا باطل وكذب كما كان يزعم المشركون ولو قدّم الجار والمجرور لأفادت العبارة غير المراد إذ يدل ذلك على أن كتاباً آخر فيه الريب لا هذا الكتاب".

وبفكر متمكن من امتلاك ناصية البيان يمضي الزمخشري ليفرق بين تقديم لفظ الجار والمجرور في آية وتأخيره في آية أخرى، فيرى في تقديم الجار والمجرور في قوله {لا فيها غول} وجود خمر في الجنة غير أنها لا تغتال العقول كما تغتالها خمور الدنيا. "كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من العيب والنقيصة".

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١١١ ، ص ١١٢.

(٢) أي أن القرآن الكريم ليس محلاً للإنكار أصلا ولا ينبغي لأحد أن يشك فيه فالمنفي انبغاء أن يرتاب فيه أحد وإذا نفى هذا فنفي الشك وإثبات اليقين في صدق القرآن من باب أولى.

ويتساءل : لم قيل : {هدى للمتقين} والمتقون مهتدون؟ ويجيب. إجابتين: "فذلك إنما كما تقول للعزيز المكرم أعزك الله وأكرمك تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته.

وأمّا أنه سماهم متقين لمشارفتهم الاكتساء بلباس التقوى كآية التنزيل {ولا يلدوا إلا فاجراً كفّارا} أي صائرا إلى الفجر والكفر وهو ضرب من المجاز المرسل علاقته ما يؤول إليه الشيء".

ويطيل في تعلق العبارات بعضها ببعض من الوجهة النحوية الخالصة ولا يلبث أن تقول – نائياً بنا عن رياضة النحو سالكاً بنا وادي الجمال الأسلوبي للقرآن ناظماً معانيها في سلك معنوي واحد-: "والذي هو ارسخ في البلاغة عرفاً أن يضرب عن هذه المحال النحوية صفحاً وأن يقال :(ألم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و (ذلك الكتاب) جملة ثانية و (لا ريب فيه) جملة ثالثة و (هدى للمتقين) رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة ، هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض. فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة.

بيان ذلك أن نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريرا لجهة التحدي وشداً من أعضائه، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً بكماله لأنه لا كمال أكمل من الحقّ وَاليقين ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة.. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين مقرر بذلك كونه

يقيناً لا يحوم الشك حوله وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من هذه الأربع – بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السوي – من نكتة ذات جزالة.

ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفي الثانية ، في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الجار والمجرور، وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر الذي هو (هدى) موضع الوصف الذي هو هاد، وإيراده منكراً، والإيجاز في ذكر المتقين[1] .

وفي الآيات التي ينصح فيها إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – أباه في سورة مريم وهي قوله تعالى {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً، إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنك شيئاًن يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً يا أبت إني أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرّحمن فتكون للشيطان ولياً} في هذه الآيات نراه يقف عند نظمها فيحللها تحليلاً رائعاً يكشف عن جمال تعبيراتها وحسن نسقها وقوة الربط الفني بين الألفاظ ومعانيها في حسن نظمها فيقول: "انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة ، كيف

---

(١) انظر ما قاله الكشاف في هاتين الآيتين الكشاف جـ١ ص ١١٤ – ١٢٦.

رتب الكلام معه في أحسن اتساق وساقه أرشق مساق مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحا في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا.. .. وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه لأن المعبود لو كان حسياً مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب نافعاً ضاراً إلا أنه بعض الخلق لاستخف عقل من أهّله للعبادة ووصفه بالربوبية ولسجل عليه بالغي المبين والظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة كالملائكة والنبيين قال الله تعالى {ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون}. وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام وهو الخالق الرازق المحيي المميت المثيب المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها فإذا وجهت إلى غيره – وتعالى علواً كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره – لم يكن إلا ظلماً وعتوّا وغيّا وكفرا وجحوداً وخروجا عن الصحيح النيّر إلى الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجّه عبادته إلى جماد ليس به حسّ ولا شعور؟!.

فلا يسمع – يا عابده – ذكرك له وثناءك عليهن ولا يرى هيئآت خضوعك وخشوعك له فضلاً أن يغني عنك بأن تستدفعه بلاء فيدفعه أو تسنح لك حاجة فيكفيكها. ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً – فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السويّ فلا تستنكف ، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة الهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه. ثم ثلّث بتثبيطه ونهيه عما كان

عليه بأن الشيطان – الذي استعصى على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده ، وهو عدوك الذي لا يريد بك إلا كل هلاك وخزي ونكال وعدو أبيك آدم وأبناء جنسك كلهم – هو الذي ورّطك في هذه الضلالة وأمرك بها وزينها لك فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان. إلا أن إبراهيم عليه السلام – لإمعانه في الإخلاص ولارتقاء همته في الربانية – لم يذكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته ، كان النظر في عظم ما ارتكب من ذلك عمر فكره وأطبق على ذهنه، ثم ربّع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجرّه ما هو فيه من التبعة والوبال. ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به ولكنه قال: أخاف أن يمسّك عذاب فنكر الخوف والمشي ونكّر العذاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب . وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه، وسماه الله تعالى – المشهود له – بالفوز العظيم حيث قال : {ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم، فكذلك ولاية الشيطان – التي هي معارضة رضوان الله – أكبر من العذاب نفسه وأعظم.

وصدر – إبراهيم – كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: "يا أبت" توسلاً إليه واستعطافاً .. ولما أطلعه على سماحة صورة أمره وهدم مذهبه بالحجج القاطعة وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل يا أبت بيا بني وقدم الخير على المبتدأ في قوله : {أراغب أنت عن

آلهتي يا إبراهيم} لأنه كان عنده أهم وهو عنده أعتي وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد. وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار مكة"[١] .

ومجيء الأسلوب القرآني على هذا النمط الأدبي الرفيع يسميه الزمخشري بعلم محاسن النظم ويبيّن أنه لا يطيق البحث فيه إلا من ارتاض هذا العلم وتدرب على ذوق هذا النمط من التعبير الذي تتداخل جمله وتقوم بينها روابط قوية خفيّة وعلاقات وثيقة غامضة لا يستطيع كشفها إلا ذوو البصائر وأرباب الفطن وأصحاب القرائح النيّرة وهو ما عناه الزمخشري بقوله: "وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم"[٢] .

وقد رأيته يقف عند كثير من النصوص ليبيّن لنا وجه تلازم النظم فيها وملاءمة الجمل وحسن اتساقها وجمال نظمها وروعة نسقها.

من ذلك قوله معلقاً على قوله تعالى {ويوم يُنفخُ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكلٌ أتوه داخرين ، وترى الجبال تحسبُها جامدةً وهي تمر مرّ السحاب صُنعَ الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ، من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها وهم من فَزَعٍ يومئذٍ آمنون، ومن جاء بالسيئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُم في النار هل تُجْزَونَ إلا ما كنتم تعملون} يقول الزمخشري بعد أن درس الآيات وبيّن تناسبها

---

(١) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٥١٠ ، ٥١١.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ١٦٧ .

وتلاءم ألفاظها ومعانيها : "فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماده ورصافة تفسيره وأخذ بعضه بحجز بعض كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ولآمر ما أعجز القوي وأخرس الشقاشق[1] .

٦-اللفظ وبيان أهميته في التعبير والأداء:

أولى الزمخشري عنايته إلى اللفظ بالقدر الذي أولاه إلى المعنى فنظر إلى المفردة القرآنية مبيناً قيمتها في موضعها إيماناً منه بأن دراسة المفردات من أوجب ما يجب على دارسي الأدب بصفة عامة ودارسي القرآن الكريم ومفسر نصوصه بصفة خاصة لأنها مفتاح النص وزمام ما فيه من دقيق المعاني وخفيّ الإشارات.

والزمخشري حينما وقف ليعالج اللفظ في النص الأدبي في القرآن الكريم مبيناً أهميته في التعبير والأداء ، لم ينظر إلىا لكلمة من حيث إنها لفظ مجرد ولكنه وقف عند مفردات النص مشيراً إلى تمكن الكلمة في سياقها وملاءمتها لصاحبتها وتآخيها وتناسبها ومحاولة الكشف عن الأسس التي سار عليها نسق الجمل والآيات وكيف تترابط وتتوحد حتى كأن بعضها يأخذ بحجز بعض.

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ١٦٢ والشقاشق = جمع شقشقة وهي لهاة البعير. وقيل هو شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج. ومنه سُمي الخطباء شقاشق شبهوا المكثار بالبعير الكثير الهدر، وفي حديث علي – رضي الله عنه – "إن كثيراً من الخطب من شقاشق الشيطان" فجعل للشيطان شقاشق ونسب الخطب إليه لما يدخل فيها من الكذب . قال أبو منصور: شبه الذي يتفيهق في كلامه يسرده سرداً لا يبالي ما قاله من صدق وكذب بالشيطان [لسان العرب مادة شقشق].

وقد اجتهد الزمخشري ما وسعه الاجتهاد في ربط مدلول الكلمة بسياقها حتى تكون ملائمة له على أحسن وجه من وجوه الملاءمة . فمثلاً كلمة (الرحمن) في قوله تعالى {من خشي الرحمن بالغيب} لا تتلاءم في الظاهر مع الخشية وإنما يكون التلاؤم ظاهراً لو قال: من خشي الجبار أو القهار ولكن الزمخشري يدرك وراء هذا التباعد الظاهري تقارباً خفياً ملائماً أشد الملاءمة وأحسنها فيقول : "فإن قلت كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة كما أثنى عليه بأنه خاش مع أن المخشي منه غائب ونحوه {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة} فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات"(١) .

وبفكر ثاقب ونظر صائب وثقافة واسعة وإحاطة شاملة بمدلول الكلمة العربية أدرك الزمخشري أن لكل كلمة في العربية استعمالها اللغوي ومدلولها الحقيقي فإذا ما نقل القرآن الكريم استعمال الكلمة من المعاني التي هي مختصة بها إلى معنى آخر اجتهد الزمخشري في بيان ملاءمة الكلمة لسياقها ولماذا آثرها القرآن على غيرها وكيف اقتضى كل مقام كلمة بعينها دون سواها، يقول في قوله تعالى {ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا تَرَى فيها عِوَجاً ولا أمتا" : فإن قلت قد فرقوا بين العِوج والعَوج فقالوا العِوج بالكسرة في المعاني والعَوج بالفتح في الأعيان والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض

---

(١) الكشاف جـ ٤ ص ١١.

بالاستواء والملامسة ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله عز وعلا ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك . اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة. وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه عِوج بالكسر"[1] .

ويقول في قوله تعالى {قال ربي يعلمُ القولَ في السماءِ والأرضِ وهو السميع العليم} : "فإن قلت هلا قيل يعلم السرّ لقوله "وأسرّوا النجوىط؟ قلت : القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسرّ وزيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم سرهم كما أن قوله "يعلم السر" آكد من أن يقول يعلم سرهم، ثم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية . فإن قلت: فلِمَ ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله تعالى {قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض}؟ قلت: ليس بواجب أن يجيء بالآكد في كل موضع ولكن يجيء بالتوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجيء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتنّ الكلام افتنانا وتجمع الغاية وما دونها: على أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ها هنا أنهم أسروا

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٥٣ . والأمت = الارتفاع اليسير ، والصفصف = الاستواء.

النجوى فكأنه أراد أن يقول : إن ربي يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة ، ثم قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض فهو كقوله {علام الغيوب}[١] .

ويقول معللاً ومحللاً لماذا آثر القرآن الكريم لفظة "في" على "اللام" عند ذكر الأصناف الأربعة الأخيرة في قوله تعالى {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفَةِ قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم} ولم كرر لفظة "في" في قوله "وفي سبيل الله" وابن السبيل؟ . يقول الزمخشري : "فإن قلت: لم عدل عن اللام إلى "في" في الأربعة الأخيرة؟ قلت: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره لأن "في" للوعاء فنبّه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنّة لها ومصبّا، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال. وفي تكرير "في" في قوله "وفي سبيل الله" و"ابن السبيل" فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين".[٢]

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٦٢ ، ص ٥٦٣ . وفي هذا النص أبان الزمخشري عن رأيه في تفاوت بلاغة القرآن الكريم بين البليغ والأبلغ والحسن والأحسن. وهذه نزعة اعتزالية لا أتعرض لها – لأن المقام هنا ليس مقام مناقشة وجهته الاعتزالية ولا معتقده المذهبي فالغرض بيان فكره الأدبي بصرف النظر عن معتقده المذهبي سنياً أو معتزلياً.

(٢) الكشاف جـ ٢ ص ١٩٨.

وللزمخشري نظرات صائبة وتوجيهات رائدة وتحليلات رائعة في حروف الجر يوضح فيها دلالاتها الأدبية توضيح الناقد المتذوق والأديب اللغوي الذي يعرف خصوصيات هذه الحروف.

فمن نظراته الصائبة ووقفاته المتأنية مع حروف الجر مستنبطاً سر وضع كل حرف في موضعه الذي جاء فيه. أقول من تلك النظـــرات – عدا ما تقدم – قوله في تفسيره قول الله تعالى {لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً} حيث يقول: "فإن قلت : فهلا قيـــل: لكـم شهيداً وشهادته لهم لا عليهم؟ قلت: لما كان الشهيد كالرقيب والمـــهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ومنه قوله تعالى {والله على كـــل شيء شهيد} و {كنتَ أنتَ الرقيب عليهم وأنتَ على كل شيءٍ شهيد}[١] .

ومثله قوله تعالى مخاطباً نوحاً عليه السلام {وأهلك إلا من سبق عليـه القول} إذ يقول : "جيء بعلي مع سبق الضارّ كما جيء باللام مـــع ســبق النافع قال الله تعالى : {إن الذينَ سبقتْ لهم منّا الحُسنَى} {ولقد سبقت كلمتُنَـــا لعبادنا المرسلين} ونحوه قوله تعالى : {لها ما كسبت وعليها مـــا اكتســبت} وقول عمر – رضي الله عنه – ليتها كانت كفافاً لا عليّ ولا ليا"[٢] .

وهكذا يمضي الزمخشري يقف عند اللفظة القرآنية يتأمل وقعـــها مشيراً إلى الفروق بين دلالات الألفاظ وملاءمتها للسياق مبيناً في ضـوء هذه التفرقة الدقيقة سر وضع كل لفظ في موضعه . كما يمضي في دقـة

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣١٧ ، ص ٣١٨.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ٣٠.

دقيقة يفرق بين مؤدي كل حرف ودلالته الأدبية. وقد يجره محصوله اللغوي الوفير من اللغة العربية وإحاطته الواسعة بأسرارها ودقائقها والوقوف على كثير من خفاياها إلى أن يستطرد فيرى في بناء الكلمة ومجيئها في الأسلوب القرآني على البناء الذي وردت فيه مما يضفي على المعنى جمالاً رائعاً كان لا يوجد إذا وردت على بناء آخر غير الذي وردت فيه. خذ مثلاً قوله تعالى {وإنَّ الدار الآخرةَ لهيَ الحيوانُ} إذ يرى في لفظ "الحيوان" وإيثار القرآن الكريم هذا البناء على لفظ الحياة زيادة معنى. وكما قالوا: زيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى. يقول الزمخشري : "وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة وهي ما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب، والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المتقضى للمبالغة"(١) .

وهاك مثالاً آخر وهو آية الشعراء {فَكُبْكِبُوا فيها هم والغاوون} إذ يرى في بنية لفظة "كبكبوا" وورودها على هذا الشكل بتكرير الباء والكاف مما يعطيها جرساً صوتياً مناسباً لحالهم حين دخولهم النار مع إفادة تكرير كبهم في جهنم مرة بعد أخرى فيقول : "والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى. كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها"(٢) .

وهو يرى في استعمال القرآن الكريم بناء اسم الفاعل وإيثاره هذا

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٢١٢ .

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ١١٩.

البناء دون صيغة النسب في آية سورة الحج مما يضفي على المعنى تصويراً جمالياً . وهي الآية التي تتحدث عن الساعة وزلزالها والقيامة وأهوالها {يومَ تذهلُ كُلُّ مرضِعَةٍ عمّا أرضعت وتضعُ كُلُّ ذاتِ حملٍ حملَهَا وترى الناسَ سُكَارى وما هم بسُكَارى} فيقول : "فإن قلت : لم قيل: مرضعة دون مرضع؟ قلت : المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي والمرضع التي من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به . فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة"(١) .

كما أن عدول الأسلوب القرآني عن اسم الفاعل إلى استعمال الفعل فيه مزية نظم وحسن نسق مما لو استُعمل اسم الفاعل يقول في آية سورة الملك {أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطيرِ فوقهم صافّات ويقبضن} : فإن قلت لِمَ قيل ويقبض ولم يقل قابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، أما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء ما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح"(٢) .

فالزمخشري – كما ترى – يلحظ ما في صيغة المضارع من

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٤ .

(٢) الكشاف جـ ٤ ص ١٣٨.

المعاني الأدبية مشيراً إلى قدرتها على التصوير وإحضار الحدث كأنما تراه العين وتسمعه الأذن.

ومثل هذه الموازنة بين صيغة المضارع واسم الفاعل يلحظها الزمخشري في قوله تعالى {إنّا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق} فيقول : "ويسبحن في معنى مسبحات على الحال – ويفرق في دقة دقيقة بين ما تفيده الكلمة اسم فاعل وما تفيده الكلمة فعل مضارع – فيقول : فإن قلت هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قلت : نعم. وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح، ومثله قول الأعشى : "إلى ضوء نار باليفاع تحرق" ولو قال محرقة لم يكن شيئاً ، ومحشورة في مقابلة يسبحن إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء جيء به فعلاً لأسم فاعل[1].

وبناء الكلمة للمجهول له مواقع أدبية يلمحها الزمخشري ويشير

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٣٦٤ . وقول الأعشى عجز بيت صدره.

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق

وبعده:

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

هذا . وقد تأثر الزمخشري في هذا بالإمام عبد القاهر الجرجاني الذي ذكر الفرق بين الإخبار بالفعل وبين الإخبار بالاسم فقال: "إنه فرق لطيف تمس الحاجة إليه في علم البلاغة" وقد علق على بيت الأعشى بقوله: "معلوم أنه لو قيل إلى ضوء نار متحرقة لنبا عنه الطبع وأنكرته النفس" [انظر دلائل الإعجاز ص ١١٤].

إليها إشارة من له ذوق أدبي رفيع إذ يربطها بالموقف الذي تصوره الآية ويكشف عن أهميتها في المعنى كشف من عنده حسّ رهيف. من ذلك ما يلمحه في بناء كلمة "مظهرة" للمفعول إذ يقول في قوله تعالى {ولهم فيها أزواج مُطَهَّرَةٌ} : "فإن قلت هلاّ قيل طاهرة؟ قلت في مطهّرة فخامة لصفتهن ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مطهّراً طهّرهن. وليس ذلك إلا الله عز وجل المريد بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أُعِدَّ لهم"(١) .

وقد يعبر القرآن الكريم عن الحدث باسم الفاعل في موضع وباسم المفعول في موضع آخر والزمخشري يشير إلى الفرق بين الموضعين وكيف اقتضى كل منهما صبغة معينة فيقول في قوله تعالى {وعلى المولودِ لهُ رِزْقُهُنَّ وكسوتُهُنَّ بالمعروف} : "فإن قلت: لم قيل "المولود له" دون الوالد؟ قلت: ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم لأن الأولاد للآباء، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات . وأنشد للمأمون بن الرشيد:

فإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن أولادهم كالأظآر – أي المراضع غير الأمهات وهن اللاتي يُرضعن بالأجر كما كانت تفعل حليمة السعدية وغيرها من النساء – ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى {ولخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده}؟!(٢).

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٢.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٧٠.

ويلحظ الزمخشري في صيغة الجمع لمسة فنية لا يدركها إلا من له بصيرة في تذوق الأساليب الأدبية وحسّ بمواقع الكلمات العربية وما تؤديه من أجمل معنى بأروع أسلوب وأحسن تعبير. فقد يأتي القرآن الكريم بجمع القلة مكان جمع الكثرة ليشير بهذا إلى معنى وقد يعكس فيأتي بجمع الكثرة مكان جمع القلة لغرض مقصود. والزمخشري يقف في هذه المقامات محاولاً كشف هذه الإشارات والإفصاح عن تلك الدلالات.

من ذلك ما يقوله في تفسير قول الله تعالى {ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة} يقول: "الأذلة جمع قلة والأذلاء جمع كثرة، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال المركوب"[١] .

ومنه ما قاله في قوله تعالى {ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين} إذ يقول: وإنما قيل "أعين" دون عيون لأنه أراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال تعالى : {وقليلٌ من عبادي الشكور}[٢] .

ويلحظ الزمخشري – كذلك – أن الكلمة تقع مفردة مرة وجمعاً

---

(١) الكشاف جـ١ ص ٤٦١ . ويريد بالمال المركوب = الخيول والجمال إذ كان للمسلمين فرسان وسبعون من الجمال يتعاقبون عليها بينما كان للمشركين أضعاف هذا العدد من الخيول والجمال عشرات المرات. وكان عدد المسلمين ثلثمائة وبضعة عشر وعددهم زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس.

(٢) الكشاف جـ ٣ ص ١٠٢.

مرة في سياق واحد وآيات متحدة في العرض فيجتهد في بيان صيغة الإفراد لموقعها الخاص بها وملاءمة صيغة الجمع لموقعها الخاص بها. خذ مثلاً قوله تعالى {قد أفلحَ المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون} ثم يقول {والذين هم على صلواتهم يحافظون} فأفرد الصلاة في الأولى وجمعها في الثانية ويقف الزمخشري مع الآيتين ليبين لنا سر التوحيد والجمع فيقول : "وحدت – يعني الصلاة – أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت. وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل"(١) .

وهكذا يمضي الزمخشري بفكره الأدبي الواعي وذوقه النقدي البصير وإحساساته المرهفة يقف [illegible] على بناء وصياغة على أسرار [illegible] في المعنى وما يوحي به كل مقام من وحي وإشارات.

وبتلك الأدوات – أيضاً – عرض الزمخشري للألفة المعنوية بين الألفاظ في النص الأدبي وعلاقة كل لفظ مع قرينه ، من ذلك ما يقوله في اقتران الناس بالحجارة في الآية {فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعِدَّت للكافرين} يقول : "فإن قلت لم قرن الناس بالحجارة وجعلت الحجارة معهم وقوداً؟ قلت: لأنهم قرنوا بها أنفسهم في الدنيا حيث نحتوها أصناماً وجعلوها لله أنداداً وعبدوها من دونه. قال الله

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧.

تعالى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم} .. ولما اعتقد الكفار في حجارتهم المعبودة من دون الله أنهم الشفعاء والشهداء الذين يستنفعون بهم ويستدفعون المضار عن أنفسهم بمكانهم جعلها الله عذابهم فقرنهم بها محماة في نار جهنم إيلاغاً في إيلامهم وإغراقاً في تحبرهم. ونحوه ما يفعله بالكافرين الذين جعلوا ذهبهم وفضتهم عدة وذخيرة فشحوا بها ومنعوها من الحقوق حيث يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم"[١] .

ويقول في اقتران الأفواه والقلوب في الآية {يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم} : "وذكر الأفواه مع القلوب تصويراً لنفاقهم وأن إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم خلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم"[٢] .

ومن ذلك أيضاً ما يقوله في الجمع بين الحذر والأسلحة في آية النساء {وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم} حيث يقول : "فإن قلت : كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر في الأخذ؟ قلت: جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازي فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ وجعلا مأخوذين ونحوه قوله تعالى {والذين تبوءوا الدار والإيمان} جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبوأ لتمكنهم فيه فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوؤ"[٣].

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٥٢.

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٧٨.

(٣) الكشاف ج١ ص ٥٦٠.

وبعد

فهذا جهدي فيما توصلت إليه لإبراز الفكر الأدبي في كشاف الزمخشري. فإن أك قد وُفِّقت فبما قصدت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وإن تكن الأخرى فحسبي أنني اجتهدت "ومن اجتهد وأخطأ فله أجر".

أسأل الله عز وجل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني عليه الأجر الجزيل {إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على الله وَهُوَ على كُلِّ شَيءٍ شهيد} وهو حسبي ونعم الوكيل {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ من قَبْلِنَا رَبَّنَا وَ لاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ}- آمين

د / محمود جمعة أمين

فهرس الموضوعات

مقدمة ٨

- بقلم أ.د/ أبو ضيف مجاهد حسن

قسم التفسير

موسى وفتاه والعبد الصالح ١٣

- أ.د/ أبو ضيف مجاهد حسن

قسم العقيدة والفلسفة

سقوط الماركسية فى الاتحاد السوفيتى – أسبابه وتداعياته ١٤٢

- د/ أحمد فهمى على محمد

ظاهرة الشك بين الغزالى وديكارت ٢١٢

- د/ محمد حسن مهدى بخيت

قسم فقه وأصول فقه

الاجتهاد وأثره فى الاحكام الشرعية عند الأصوليين ٣١٧

- د/ محمود على مهران عثمان

قسم الفقه المقارن

مصارف الزكاة فى الفقه الإسلامى "دراسة مقارنة" ٣٨٣

- د/ أمال كامل عبد الرحمن

قسم البلاغة والنقد

من أسرار التعبير بكأن فى القرآن الكريم ٥٣٧

- أ.د/ هاشم محمد هاشم

دراسة بلاغية فى سوزة قرآنية – سورة الضحى ٥٨٩

- د/ فايزة كامل عبد الرحمن

قسم الأدب والنقد

الشعر العربى بين الأصالة ودعوة التجديد ٦٤٣

- أ.د/ حامد إبراهيم الخطيب

الفكر الأدبى فى كشاف الزمخشرى ٦٨١

- د/ محمود جمعة أمين

رقم الإيداع بدار الكتب
٦٢٣١ / فبراير ٢٠٠٢

مع تحيات
المطبعة العربية الحديثة
٤ ش عبد الفتاح سلام ٣٢٠٨٦٩